

الباب الأول

الدعوة إلي دين الله ونشر الإسلام

الدعوة إلي الإسلام ونشره في ربوع الأرض كانت ولا تزال وستبقى تمثل قوام حضارة الإسلام وأساسها الذي قامت من أجله ، فليس من المتصور قيام حضارة تحمل اسم الإسلام وصفته دون ارتكانها علي هذا المركز الأساس ، فالإسلام كدين وكطريق حياة وكشريعة ، إنما وجد ليبقى وينتشر ويتعمق في نفوس الناس وعقولهم ، ويصنغ سلوكاتهم ويرسم حياتهم ، ومن ثم تصيح عملية الدعوة إلي الإسلام ونشره من أهم عناصر ومقومات الحضارة الإسلامية .

إضافة إلي ما تقدم فإن الدعوة إلي الإسلام ونشره في ربوع الدنيا يمثل البعد الأخلاقي القيمي الذي تمتعت وتفردت به الحضارة الإسلامية علي غيرها من الحضارات ، التي انتهجت جميعها تقريباً انتهاجات مادية صرفه ، تخلو في معظم الأخيـان من الأبعاد الأخلاقية القيمية ، وفي هذه الحالة تمثل عملية الدعوة إلي الإسلام ونشره عملية لنشر القيم والأخلاق والمثل ، وليس عملية الهدف من ورائها فتح الأمصار وضم البلدان .

إن مسألة الدعوة إلي الإسلام ونشره تمثل في الحضارة الإسلامية تراثاً وتاريخاً زاخراً بالنماذج والتجارب ، بدأ منذ بزوغ فجر الرسالة ، واستمر حتى وقتنا الراهن ، وقد تقلب ذلك التاريخ بين مد ارتبط بازدهار الحضارة الإسلامية وإبناعها ، وبين انحسار ارتبط كذلك باضمحلال تلك الحضارة وخفوت بريقها .

ولا ينبغي أن يقتصر الأمر علي دراسة مسألة الدعوة للإسلام ونشره كتراث وتاريخ فقط، ولكن من المحتم أن يدرك أبناء الإسلام أهمية هذه المسألة في الوقت الراهن ، وأهمية اعتبارها إحدى أهم عناصر ومقومات الحضارة الإسلامية في واقعنا غير المواتي ، إذا أرادوا لهذه الحضارة أن تحتفظ بذاتها .

وهناك ما هو ابعد من ذلك فينبغي التخطيط لمستقبل الدعوة إلى الإسلام ونشره ، كأحد أهم عناصر ومقومات الحضارة الإسلامية في الأيام القادمة ، والتي يمكن أن تعيد لهذه الحضارة رونقها وتحفظ لها ذاتيتها .

في هذا الباب سوف نتناول الدعوة إلى الإسلام ونشره ، كأحد أهم مقومات وعناصر الحضارة الإسلامية في الماضي والحاضر والمستقبل ، وذلك من خلال الفصول الخمسة التالية :

الفصل الأول : الدعوة إلى الإسلام ونشره يمثل قوام الحضارة الإسلامية .

الفصل الثاني : الدعوة إلى الإسلام ونشره يمثل البعد الأخلاقي للحضارة الإسلامية .

الفصل الثالث : الدعوة إلى الإسلام ونشره كقراة حضاري إسلامي .

الفصل الرابع : الدعوة إلى الإسلام ونشره وأهميته للحضارة الإسلامية في الوقت الراهن .

الفصل الخامس : الدعوة إلى الإسلام ونشره وأهميته لمستقبل الحضارة الإسلامية .

الفصل الأول

الدعوة إلى الإسلام ونشره

يمثل قوام الحضارة الإسلامية

علاقة الإسلام بالحضارة الإسلامية علاقة ارتباطية واحتوائية من نوع خاص ، فهي تشبه العمود الفقري الذي يلتف حوله الجسد ، ويمثل صلبه وقوامه الذي بدونه يصبح الجسد كماً هلامياً لا كنه له ولا ملامح ، والدعوة إلي الإسلام ونشره هي المولد الذي يولد في الإسلام الحركة والنشاط والقدرة علي العطاء والاستعداد الدائم والجاهزية المستمرة لذلك ، ومن ثم اعتُبرت الدعوة إلي الإسلام ونشره هي في ذات الوقت قوام الحضارة الإسلامية وإحدى مقوماتها وعناصرها الأساسية ، ويمكن زيادة إيضاح تلك العلاقة الارتباطية العضوية من خلال المباحث الخمسة التالية :

المبحث الأول : مشروعية الدعوة ونشر الإسلام فريضة .

المبحث الثاني : نشر الإسلام والدعوة إليه يمثل أحد أهم

أشكال التعامل مع عناصر الوجود .

المبحث الثالث : طبيعة الإسلام الانتشار والذيع .

المبحث الرابع : الإسلام لا انفصال فيه بين الدين والحياة .

المبحث الخامس : الحضارة الإسلامية حضارة ذات صبغة دينية .

المبحث الأول

مشروعية الدعوة ونشر الإسلام فريضة

قام الإسلام أساساً علي الدعوة والتبليغ ، فهو الدين الجامع والرسالة الخاتمة ، به أتم الله دينه وجعله الدين الذي لا يقبل الله سواه ، وقد أمر الله المسلمين بالدعوة لهذا الدين ، والعمل علي نشره بالتبليغ أو الإخبار ، وبشتى الوسائل القولية بالقول والتبيان ، والسلوكية بالفعل وتقديم القدوة والأسوة والنموذج .

أولاً : مهمة المسلمين الدعوة والتبليغ :

المسلمون علي مر العصور ، منذ انبلاج فجر الإسلام والي أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وفي كل البقاع والأماكن ، مهمتهم تتمثل في الدعوة إلي هذا الدين وتبليغه إلي كل الناس ، وهذه الدعوة توجه إلي صنفين من البشر :

❖ الصنف الأول :

المسلم الموالى للإسلام ، حتى يزداد ولاؤه ، وترسخ عقيدته ويثبت إيمانه ، وهذا الصنف يحتاج إلي نوع معين من الدعوة والتبليغ ، يتواءم مع طبيعة المسلم الموالى للإسلام.

❖ الصنف الثاني :

غير المسلم وغير المهتم بالإسلام ، وتهدف الدعوة الموجهة إلي هذا الصنف من البشر إلي جذب انتباه غير المهتم واسترعاء اهتمامه ، حتى يتحول إلي مهتم .

كذلك فالدعوة والتبليغ لايد أن تتم بشكل منظم ومدروس ومحكم ، ومن أناس مُعدّين ومهيئين لذلك تمام الأعداد والتهيؤ ، وباستخدام الأساليب التي تجمع بين القول اللين والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى والسلوك المثالي وتقديم النموذج والقدوة .

قال تعالى : " فإن حَآجُوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْنَ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنِ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ " ¹ ، ووفق هذه الآية الكريمة ، فالدعوة من الرسول الكريم والمسلمين من بعده موجهة إلي أصحاب الكتب السماوية وغيرهم من الأميين الذين لم ينزل فيهم كتاب ، ولم يتبعوا أية ديانة ، فإن دخلوا في الإسلام فقد اهتدوا إلي الصراط المستقيم ، وإن لم يستجيبوا فقد بُلِّغُوا بالدعوة وأقيمت عليهم الحجة وأمرهم إلي الله .

وقال تعالى : " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما علي رسولنا البلاغ المبين " ² ، فالبلاغ هو مهمة الرسول والدعاة إلي الإسلام من بعده .

وقال تعالى : " ما علي الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون " ³ .

وقال تعالى : " وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب " ⁴ .

وقال تعالى : " هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب " ⁵ .

وقال تعالى : " وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل علي الرسل إلا البلاغ المبين " ⁶ .

وقال تعالى : " فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين " ⁷ .

1. سورة آل عمران ، ٢٠ .

2. سورة المائدة ، ٩٢ .

3. سورة المائدة ، ٩٩ .

4. سورة الرعد ، ٤٠ .

5. سورة إبراهيم ، ٥٢ .

6. سورة النحل ، ٣٥ .

7. سورة النحل ، ٨٢ .

وقال تعالى : " ادع إلي سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين " ¹ ، توضح هذه الآية الكريمة أسلوب الدعوة الذي تدرج في منطلقات متتابعة ، بدأت بالحكمة أي الرشد والسداد والعلم ، ثم الموعظة الحسنة دون تشنج أو تعالٍ أو صخب ، وإذا وصل الأمر إلي حد الجدال ومطارحة الحجة بالحجة ، كانت بالأسلوب الهادئ الحكيم القويم ، وهذا هو سبيل الدعوة.

وقال تعالى : " اذهباً إلي فرعون إنه طغى ۞ فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى " ² ، وتبين هذه الآية الكريمة إنه حتى في دعوة وإبلاغ أطنى الطغاة لابد من اللين والرقعة ، لأن اللين ما كان في شئ إلا زانه وما نزع من شئ إلا شانهُ .

وقال تعالى : " إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين " ³ ، وفي هذه الآية الكريمة إيضاح لما سبق وقدمنا من أن الدعوة توجه إلي المؤمن لتكون له زيادة في إيمانه وتثبيتاً له عليه .

وقال تعالى : " لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلي ربك إنك لعلي هدى مستقيم " ⁴ ، وهذه الدعوة موجهة من الحق تبارك وتعالى إلي رسوله الكريم ، ثم إلي كل مسلم تنهياً له مقدرات ومكنات الدعوة إلي دين الله .

وقال تعالى : " قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ماحمّل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما علي الرسول إلا البلاغ المبين " ⁵ .

¹ .سورة النحل ، ١٢٥ .

² .سورة طه ، ٤٣ و ٤٤ .

³ .سورة الأنبياء ، ١٠٦ .

⁴ .سورة الحج ، ٦٧ .

⁵ .سورة النور ، ٥٤ .

وقال تعالى : " ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلي ربك ولا تكونن من المشركين " ¹.

وقال تعالى : " وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما علي الرسول إلا البلاغ المبين " ².

وقال تعالى : " قالوا ربنا يعلم إننا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين " ³.

وقال تعالى : " فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل ءامننت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير " ⁴.

وقال تعالى : " فإن عرضوا فمآ أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ وإنآ إذآ أنقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور " ⁵.

وقال تعالى : " إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً " ⁶.

وقال تعالى : " ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عدداً " ⁷.

1. سورة القصص ، ٨٧ .

2. سورة العنكبوت ، ١٨ .

3. سورة يس ، ١٦ و ١٧ .

4. سورة الشورى ، ١٥ .

5. سورة الشورى ، ٤٨ .

6. سورة الجن ، ٢٣ .

7. سورة الجن ، ٢٨ .

ثانياً : الإيمان أمره إلي الله :

كما سبق وأوضحنا ، تتمثل مهمة الرسل ومن تبعهم من عباد الله الصالحين ، في الدعوة إلي دين الله ، وتبليغ رسالاته إلي جميع خلق الله ، ويبقى الإيمان أمره إلي الله ، إن علم من المبلّغين رغبة في الإيمان والهداية ، هداهم إلي صراطه المستقيم ، وإن استحبوا الكفر علي الإيمان ختم علي قلوبهم وتركهم في غيهم يعمهون .

قال تعالى : " فلعلك باخع نفسك عليٰ آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً " ¹.

وقال تعالى : " لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين " ².

وقال تعالى : " أفمن زُين له سوء عمله فراءه حسناً فإن الله يضل من يشاء

ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون " ³.

¹. سورة الكهف ، ٦ .

². سورة الشعراء ، ٣ .

³. سورة فاطر ، ٨ .

المبحث الثاني

نشر الإسلام والدعوة إليه يمثل أحد أهم أشكال التعامل

مع عناصر الوجود

سبق وأوضحنا أن الحضارة هي بمثابة تعامل وتعاطي وتفاعل مع عناصر الوجود من مخلوقات وموجودات ، ولعل الدعوة إلي دين الله الذي هو الإسلام هي أحد أهم أشكال ذلك التعامل ، ويمكن إيضاح ذلك الارتباط ، وتبيين تلك العلاقة من خلال الآتي :

أولاً : كل المخلوقات تطيع الله وتسبح له :

إن هذا الكون الفسيح الذي لا يعلم نهايته إلا خالقه سبحانه ، قد أُوجد بالكاف والنون أي بفعل الأمر كُن ، فكان علي ما أَراده ذلك الخالق العظيم ، وظلت جزئيات ومفردات ذلك الكون علي طاعتها وإذعانها وانصياعها منذ وجودها ، ومن ثم فقد جُبلت تلك المخلوقات والموجودات علي الطاعة ، وفُطرت علي الإيمان والاستسلام للخالق .

قال تعالى : " ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال " ¹.

وقال تعالى : " تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا

يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً " ².

وقال تعالى : " وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار " ³.

¹. سورة الرعد ، ١٣ .

². سورة الإسراء ، ٤٤ .

³. سورة الأنبياء ، ١٩ و ٢٠ .

وقال تعالى : " ففهمناها سليمان وكلاً ءاتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين " ¹.

وقال تعالى : " ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون " ².

وقال تعالى : " إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق « والطير محشورة كل له أواب " ³.

وقال تعالى : " سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم " ⁴.

وقال تعالى : " سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم " ⁵.

وقال تعالى : " يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم " ⁶.

وقال تعالى : " ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين " ⁷.

وقال تعالى : " يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم " ⁸.

وقال تعالى : " يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو علي كل شئ قدير " ⁹.

١. سورة الأنبياء ، ٧٩ .

٢. سورة النور ، ٤١ .

٣. سورة ص ، ١٨ و ١٩ .

٤. سورة الحديد ، ١ .

٥. سورة الحشر ، ١ .

٦. سورة الحشر ، ٢٤ .

٧. سورة فصلت ، ١١ .

٨. سورة الجمعة ، ١ .

٩. سورة التغابن ، ١ .

ثانياً : نشر الإسلام والدعوة إليه تعنى الاندماج في منظومة الكون :

كل ما في الكون من مخلوقات وموجودات يسبح الله ويعبده ، وعليه فإن الدعوة إلي الإسلام ونشره في ربوع الأرض ، يعنى الاندماج في منظومة الكون ، التي قوامها تسييح الله ، ودأبها عبادته وطاعته ، وتلك الدعوة إن هي إلا استئناس وتفاعل وتناغم مع مكونات تلك المنظومة ، حيث يصبح القاسم المشترك للجميع هو الإيمان بالله وطاعته ، وهنا يحدث الوفاق والتناغم والتآلف بين الإنسان المسلم والطبيعة من حوله .

ثالثاً : الإنسان المخاطب بالدعوة هو أحد أهم عناصر الوجود :

الإسلام جاء ليخاطب عقل الإنسان وفكره وبصيرته ، والإنسان المخاطب بالإسلام من خلال الدعوة هو أحد أهم عناصر الوجود ، فهو العنصر الأفضل الذي سخرت له العناصر الأخرى ، وتميز عليها بالعقل والتفكير ، وتفرد باحتفاظه بحرية اختيار التكليف من عدمه .

المبحث الثالث

طبيعة الإسلام الانتشار والذبيوع

الدين الإسلامي جاء لينتشر بين الناس ، ويعم كافة الأرجاء لا أن يقتصر علي طائفة من الناس ، فهو موجه إلي كل الخلائق وكافة الأجناس ، وتجد هذه الطبيعة الخاصة لهذا الدين أصولها في الآتي :

أولاً : إن الإسلام هو الدين الخاتم المتمم للرسالات السماوية :

اخبر الحق تبارك وتعالى أن الإسلام هو آخر الديانات ومتممها ، ومن ثم فقد أشتمل علي كل ما تكتمل به الحياة ، ولا يعوزها شرائع أخرى لمعالجة نواقصها ، وفي ذلك جاء قول الحق تبارك وتعالى : " إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب " ¹.

وقال تعالى : " أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون " ².

وقال تعالى : " ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " ³.

وقال تعالى : " حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتريدة والنتيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح علي النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يأس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم

1. سورة آل عمران ، ١٩ .

2. سورة آل عمران ، ٨٣ .

3. سورة آل عمران ، ٨٥ .

أكمّلت لكم دينكم وأتمّمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخصّصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم”^١.

ثانياً : الإسلام جاء لصلاح الكون :

أما الأصل الثاني لطبيعة الإسلام كدين يتسم بالانتشار والذيووع ، فيكمن في حقيقة أن هذا الدين إنما جاء لإصلاح وصلاح الكون ، وبالتالي فانتشاره يعد ضرورة بل وحتمية من أجل إنفاذ أمر الخالق العظيم الذي اختتم رسالاته بهذا الدين القيم .

^١. سورة المائدة ، ٣ .

المبحث الرابع

الإسلام لا انفصال فيه بين الدين والحياة

الإسلام دين وحياة في وقت واحد ، فهو نسك وعبادة ، وهو شرع وتشريع لكل الأمور والشئون ، وهو كذلك نظام اجتماعي متكامل ، فالحياة تنتظم بالإسلام الذي هو في ذات الوقت نسك وعبادة .

والعلاقة ارتباطية وتبادلية بين الأمرين : فمن يعبد الله بحق وإخلاص ، فهو مؤمن صادق في إيمانه ، وهو في ذات الوقت يقيم حياته ، ويسير معاملاته مع أقرانه من أفراد المجتمع ، وفق شرع الله ، وحسب حدوده وضوابطه .

ومن يعيش في وئام وتفاهم وتراحم وتعاطف مع أفراد مجتمعه ، تجده يقدر الله حق قدره ، ويعرفه حق المعرفة ، ويعبده كأنه يراه ، فمن يحسن إيمانه ويتعمق ، تحسن كذلك علاقاته بأفراد مجتمعه وتتوطد .

ولقد انتقلت هذه العلاقة الارتباطية التبادلية بين سلوك المسلم وحياته ، إلي العلاقة بين السلوك الإسلامي عموماً وبناء الحضارة ، فالإسلام يأمر بل ويحض علي إعمار الكون، والإعمار لا يتم إلا بالتعامل مع عناصر الوجود ، ولا ينتج إلا الحضارة .

والإسلام لا يطلب الإعمار فقط ، بل يرغب في الإعمار بمستويات راقية ، حتى يوفر لأفراد المجتمع المسلم الحياة الطيبة ، التي تليق بآدمية الإنسان ، وفي ذلك جاء قول الحق تبارك وتعالى: " من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون " ¹.

¹ .سورة النحل ، ٩٧ .

والحياة الطيبة وما يصحبها من حضارة مزدهرة ومدنية يانعة في المجتمع المسلم ليست غاية في حد ذاتها ، ولكنها وسيلة لغاية نهائية هي عبادة الله سبحانه وتعالى ، التي من أجلها خلق الخلق وأوجد الكون وأمر بالإعمار وحث عليه ، قال تعالى : " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " ¹ .

مما تقدم يتضح أن الإسلام هو البداية وهو الغاية والنهاية في ذات الوقت ، فالدعوة إلي الإسلام والعمل علي نشره تقودان إلي ازدهار الحياة وقيام الحضارة الزاهرة والمدنيات العامرة ، وهذه الحضارات والمدنيات هدفها توطيد أركان الإسلام وعبادة الله الواحد الأحد .

¹ .سورة الذاريات ، ٥٦ .

المبحث الخامس

الحضارة الإسلامية حضارة ذات صبغة دينية

أكدنا في أكثر من موضع مما تقدم علي أن الإسلام يلعب دوراً مهماً في بناء الحضارة الإسلامية فهو قوامها ، وهو نقطة البداية فيها ، وهو أخيراً غايتها ومنتهاها ، فالحضارة إذن تبدأ بالإسلام ، فتنهل منه ويمتد أركانها ، ثم تنتهي إليه مرة أخرى ، حيث تعمل علي نشره وتوطيد أسسه في مختلف الأرجاء ، وهكذا تبدو العلاقة التبادلية بين الإسلام والحضارة - والتي سبق تناولها بالتفصيل - ومن هذه العلاقة التبادلية يكون من السهولة بمكان استخلاص ما مؤداه أن الحضارة الإسلامية هي حضارة ذات صبغة دينية ، حيث يلعب فيها الدين الدور الأساس شكلاً وموضوعاً .

فالحضارة التي يدخل الإسلام في تشكيلها إلي أن يصير قوامها ، لا بد أن تكون حضارة ذات صبغة دينية ، فالدين أساسها ومنطلقها في حركتها نحو بناء صرحها الذاتي ، ويتخلل ثناياها ومفرداتها ، لينظم كافة أجزائها ، ويعم مكوناتها ، ليضفي عليها مسحة وصبغة ، فيجمع بين جوهرها ومضمونها من ناحية ، وشكلها وهيئتها من ناحية أخرى .

والإسلام هو روح الحضارة وبدونه تتحول إلي معنى بدون روح وشكل بدون جوهر ، وذلك هو شأن الحضارات ذات الطبيعة المادية البصرية ، التي تخلو في المعتاد من العوامل والأبعاد الدينية الأخلاقية ، وتلقى بكل ثقلها علي المقومات والعناصر المادية ، فتتفوق فيها وربما تحرز فيها قصب السبق ومع ذلك التفوق والسبق ، تنحسر في المقابل المقومات والعناصر ذات الطابع الأخلاقي ، وهذا عينه ما يحدث في الوقت الراهن ونراه رأي العين .

الفصل الثاني

الدعوة إلى الإسلام ونشره يمثل

البعد الأخلاقي للحضارة الإسلامية

من أهم خصيَّات الحضارة الإسلامية أنها حضارة ذات صبغة أخلاقية ، وتكتسب تلك الحضارة صبغتها تلك من تمركزها حول نشر الإسلام والدعوة إليه ، ويبرز البعد الأخلاقي للحضارة الإسلامية من خلال آثاره ونتائجه التي يضيفها علي أدوات التعامل مع عناصر الوجود ، ومقومات وعناصر تلك الحضارة ، وكذا أهدافها وغاياتها ، ويتضح ذلك من خلال المباحث الثلاثة التالية :

المبحث الأول : البعد الأخلاقي يغلف أدوات التعامل مع عناصر الوجود .

المبحث الثاني : البعد الأخلاقي يطبع مقومات وعناصر الحضارة .

المبحث الثالث : البعد الأخلاقي يصيغ أهداف وغايات الحضارة .

المبحث الأول

البعد الأخلاقي يغلف أدوات التعامل مع عناصر الوجود

سبق وأوضحنا أن الحضارة في أساسها هي بمثابة تعامل يقوم به الإنسان مع عناصر الوجود من مخلوقات وموجودات ، وذلك التعامل تحكمه معايير وضوابط ، وينطلق من أسس وقواعد، ويبتغي أهدافاً وغايات ، وهذا هو شأن الحضارة بشكل عام بغض الطرف عن هويتها وتوجهاتها ، وإذا كانت أدوات التعامل وما تنطلق منه من أسس وقواعد هي أساس الحضارة ، فمعنى ذلك أن كل حضارة أقامها الإنسان في كافة الأماكن والأزمان تصطبغ بصبغة القواعد والأسس التي تنطلق منها أدوات التعامل وتعتبر أساساً لها .

فمن الحضارات الإنسانية التي شهدتها البشرية ما أنطلق في أدوات تعامله مع عناصر الوجود من منطلقات مادية صرفة ، وظل كذلك إلي أن زال أو توارثته أجيال أخرى ، ومنها ما أنطلق من منطلقات أخلاقية دينية صرفة ، وظل كذلك حتى أذن الله بتغيير حالها ، ومنها ما مزج بين النوعين من المنطلقات في مزيج رائع من التناسق والتآلف بين الشق الروحي الأخلاقي والشق المادي الحياتي .

وقد قُدر للبعد الأخلاقي أن يلعب دوراً مهماً في التأثير علي أدوات التعامل مع عناصر الوجود ، فيما يتعلق بالحضارة الإسلامية ، وذلك من خلال التركيز علي نشر الإسلام والدعوة إليه داخل المجتمعات الإسلامية وخارجها .

وقد نتج عن سيادة البعد الأخلاقي علي أدوات التعامل مع عناصر الوجود فيما يتعلق بالحضارة الإسلامية ، أن سهلت عمليات الاندماج والتفاعل بين المسلم وباني الحضارة ومشيد صروحها وبين عناصر الوجود من مخلوقات وموجودات سخرها الله لخدمة الإنسان وتسيير أموره .

وظل المسلم علي مر التاريخ منذ ظهور الإسلام ، وهو يتعامل مع عناصر الوجود بنهج أخلاقي ، يتفق مع سنن الله في الحياة وناموسه في الكون ، فجاءت حضارته نقية من أية تجاوزات خالصة من أية إفساد أو إساءة لتلك العناصر ، وهكذا جاءت الحضارة الإسلامية حضارة أخلاقية فيما يتعلق بعلاقتها بعناصر الوجود من مخلوقات الله وموجوداته .

المبحث الثاني

البعد الأخلاقي يطبع مقومات وعناصر الحضارة

إضافة إلي المنطلقات التي تنطلق منها أدوات التعامل مع عناصر الوجود الخاصة بالحضارات ، ثمة المقومات والعناصر التي تنتصب عليها الحضارات ، وتلك المقومات والعناصر هي النشاطات التي تبرع فيها الحضارات ، وتقدم بخصوصها إسهامات وإنجازات ، تتميز بها وتنسب إليها ، وقد عهدت الإنسانية حضارات ارتكزت علي مقومات وعناصر مادية مبهرة، مثل التشييد والبناء وركوب البحر والاستفادة من الرياح والشمس وإجراء الأنهار والمجاري المائية ، وما يرتبط بذلك من ماديات الحياة ، كما شهدت الإنسانية أيضاً حضارات أرتكنت علي مقومات وعناصر أخلاقية مثالية تتعلق بالقيم والفضائل والمبادئ والمثل ، ولم تصب حظاً وافراً من المقومات والعناصر المادية .

وبين الفصيلين المتقدمين من الحضارات عايشت الإنسانية حضارات جمعت بين المقومات والعناصر المادية والمقومات والعناصر الأخلاقية الروحية ، وبرعت في إقامة حالة من التوافق والتآلف بين النقيضين المادة والروح ، وبالرغم من قلة نماذج الحضارات التي انتهجت نهج الوسطية والاعتدال بين المادة والروح إلا أنها كانت هي الحضارات التي نالت ولا تزال تقدير الباحثين والمفكرين .

وقد كانت الحضارة الإسلامية واحدة من أهم تلك الحضارات التي وافقت وآلفت بين المادة والروح ، وانتهجت نهجاً وسطاً بين النقيضين ، فقد كانت الحضارة الإسلام رائدة وسباقة في الدعوة إلي إعمار الكون وازدهار الدنيا وتوفير الحياة الطيبة بمعايير ومقاييس أخلاقية مثالية ، وكانت في ذات الوقت تدعو إلي نشر الإسلام والدعوة إليه وعبادة الله الواحد

الأحد ، ومن ثم فقد عمدت الحضارة الإسلام إلي تقديم نموذج من الحضارات امتزجت فيه المادة بالروح ، وكان نموذجاً فريداً لم يضاھيه نموذج حتى الآن .

وفي ذلك ورد القول العظيم من الخالق الحكيم : " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء علي الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب علي عقبه وإن كانت لكبيرة إلا علي الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم " ¹ .

وقال تعالى : " ولتكن منكم أمة يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " ² .

ومعنى هذه الآية الكريمة يجب أن تكونوا كلكم أمة من صفات أفرادها أنهم يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وهذه الأمة العظيمة التي نالت رضا ربها ورضوانه في الدنيا والآخرة .

وقال تعالى : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون " ³ .

¹ .سورة البقرة ، ١٤٣ .

² .سورة آل عمران ، ١٠٤ .

³ .سورة آل عمران ، ١١٠ .

المبحث الثالث

البعد الأخلاقي يصنع أهداف وغايات الحضارة

يوصل البعد الأخلاقي تأثيره علي مفردات ومكونات الحضارة الإسلامية بدءاً من منطلقات عمليات التعامل مع عناصر الوجود ، ثم مقومات وعناصر الحضارة ، وأخيراً أهداف وغايات الحضارة ، ومن المؤكد أن كافة الحضارات التي تواردت علي هذه الأرض قد حددت لنفسها هدفاً وغاية ، وقد توزعت تلك الأهداف والغايات بين أهداف لا تتجاوز إقامة المدينيات وإنشاء العمران وإدخال وسائل الراحة والترفيه علي أصحاب الحضارة ، وبين الرغبة في تحقيق أهداف التوسع والسيطرة وإعمال وسائل القهر علي الآخرين من خلال استغلال وسائل الحضارة وأدوات التقدم المادي والتقني .

إلا أن الحضارة الإسلامية اختارت نمطاً ثالثاً مختلفاً عن النمطين المتقدمين ، فقد تمثلت أهداف وغايات الحضارة الإسلامية في نوعين من الأهداف :

أولاً : الأهداف الوسيطة أو المرحلية :

وتمثلت تلك الأهداف في إعمار الأرض وإقامة المدينيات لتحقيق الحياة الطيبة لأبناء المجتمع الإسلامي .

ثانياً : الأهداف النهائية :

وتمثلت تلك الأهداف في التمكين لدين الله ونشره والدعوة إلي عبادة الله الواحد الأحد في مشارق الأرض ومغاربها .

الفصل الثالث

الدعوة إلى الإسلام ونشره

كتراث حضاري إسلامي

في هذا الفصل نَعْرِج علي دراسة أهمية ذلك العنصر في تاريخ الحضارة الإسلامية ، أو بعبارة أكثر دقة تاريخ الدعوة إلي الإسلام ونشره ، بوصفه عنصر من عناصر الحضارة الإسلامية ومقوم من مقوماتها .

فقد سبق وأكدنا علي أن الدعوة إلي الإسلام ونشره هي إحدى أهم مقومات وعناصر الحضارة الإسلامية ، وألمحنا أيضاً إلي أن الحضارة الإسلامية تُدرس في المعتاد ويتم تناولها كتاريخ وتراث يرتبط بماضي الإسلام ولا يتعرض لحاضره أو يمتد لمستقبله .

وقد تعرضت دراسات وأدبيات عديدة لتاريخ الدعوة إلي الإسلام وتابعت حركات نشره وعمليات انتشاره ، ولكن ليس كعنصر أو مقوم من عناصر ومقومات الحضارة الإسلامية بل كتاريخ لانتشار الإسلام وانتشار حضارته ، ولا نعني هنا بدراسة الدعوة إلي الإسلام ونشره كعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية دراسة تفاصيل ودقائق فتح المسلمين للبلدان والأمصار، ونشر الإسلام في كافة البقاع والأرجاء ، ولكن ينصب جل اهتمامنا علي إبراز أهمية نشر الإسلام والدعوة إليه كعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية من خلال تكثيف الضوء علي جملة من المؤشرات التي تؤثر إلي تفرد وتميز هذا العنصر في تاريخ الحضارة الإسلامية ، ويتضح ذلك من خلال المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : سرعة انتشار الإسلام .

المبحث الثاني : الانتشار في كافة الاتجاهات .

المبحث الثالث : دخول أجناس مختلفة إلي الإسلام .

المبحث الرابع : الإسلام ينتشر بحضارته وثقافته .

المبحث الأول

سرعة انتشار الإسلام

تساءل الكثير من الباحثين والمؤرخين وبصفة خاصة المستشرقين الذين لم يقدر لهم تملك الملكة والحس اللذين يمكنانهم من الغوص وراء الأسباب التي أدت إلي سرعة انتشار الإسلام علي رقعة شاسعة من المعمورة في فترة وجيزة ، ولا يزال هذا السؤال من الاستفسارات الملحة التي تبحث عن إجابة شافية تفض الاشتباك والتداخل واللبس الذي ينتج عنه في كثير من الأحيان إساءة الفهم وإيقاع الضير بالإسلام وأهله .

فماذا يملك ذلك الدين الجديد من مكنات ومقدرات جعلته ينتشر بهذه السرعة المذهلة ؟ وماذا لديه من قوة جذابة مستقطبة خلبت العقول وبهرت القلوب واستوقفت الأنظار ؟ .

بالفعل كان الإسلام في الزمن والظروف التي بزغ فيها قوة مؤثرة بشكل خارج علي ما هو مألوف ، فقد تملك ذلك الدين العديد من المؤهلات والقدرات الخارقة التي اخترقت حواجز الجنس واللغة واستهدفت الألباب والأفئدة ، فانسابت إليها في سلاسة ورشاقة ، وتملكتها في تمكن وإحكام ، ولعله من المجدي والضروري معاً تناول جملة الظروف ، وكذا المقدرات والمؤهلات التي حدثت بالإسلام إلي الانتشار السريع بشكل ملفت للأنظار ، وذلك فيما يلي :

أولاً : التفرغ للدعوة ونشر الإسلام :

منذ الوهلة الأولى لبزوغه قيض الله لهذا الدين رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، كان كل همهم نشر هذا الدين والدعوة إليه وتبليغه إلي بني البشر ، لأنه يحمل السمو والترقي بالروح والنفس ، وعلي غير المعهود في ذلك الزمان ، شهدت الفترة التي انتشر فيها الإسلام ووطد أركانه ظاهرة لم تشهدها أو تعاشها أية ديانة أو عقيدة أخرى ، وتمثلت

هذه الظاهرة في قيام مجموعة من الرجال تميزوا بنقاء العقيدة وتفردوا بصفاء الفكر وحسن النوايا وصدق الهدف والغاية ، وكان الشغل الشاغل لهذه الثلة من الأفاضل هو الإسلام كدين وعقيدة وفكر وحياة وحتى ما بعد الحياة ، لم يكن لديهم ما يشغلهم سوى نشر هذا الدين السامي ، وتبليغه ليصل بسموه ورقبه إلي جميع الناس ، فيسمو بأنفسهم ويرقى بأرواحهم إلي الذرى ، وهذا الهدف النبيل عند الغوص وراء معانيه ومضامينه نجده ليس حياً في نشر الإسلام لذات الإسلام ، ولكن كذلك رغبة في إفادة الناس ، وطلباً لرفعتهم والترقي بأنفسهم وأرواحهم ، وهذا هو حب الخير الذي تعلمه المسلمون الأوائل من الإسلام وانبروا لتوصيله إلي العالمين ، لقد كان هدف الأوائل من نشر الإسلام تحرير الناس من الجهل وظلمة الاستعباد ، استعباد النفس للنفس ، واستعباد الجهل والتخلف العقيدي والفكري للنفس أيضاً .

لقد كان الصدق والإخلاص هما السبب الأول وربما الأخير الذي وقف وراء النجاحات التي حققها المسلمون الأوائل في نشر الإسلام ، وينبعث من هذين السببين حب الخير لبنى الإنسان .

لقد سما نشر الإسلام وحب الناس لدى المسلمين الأوائل فوق أي شئ آخر ، فوق متطلبات وحاجات الحياة ، فوق رغبات النفس ومشبعات الأهواء ، فوق الخلافات والمنافسات التي كانت نادراً ما تحدث وإذا حدثت فهي من أجل البحث عن أمثل الطرق والوسائل لتحقيق الهدفين المتقدمين .

وكانت ثمار ذلك يانعة مزدهرة ، وكان الجزء من جنس العمل ، فانتشر الدين الجديد ومعه انتشرت الحضارة والمدنية والحياة الطيبة ، ودخل الناس من جميع الأجناس والأعراق في دين الله أفواجاً ، وتنسم الجميع أريج الحرية وعبير الحب والتآخي والتعاطف ، وشعر الجميع بأنهم اخوة لأب وأم هو الإسلام .

وفي أوائل المسلمين الذين فرغوا أنفسهم وجندوها للدعوة إلي دين الله ، ونشر الإسلام في بقاع الأرض ، وأحبوا الناس ، وسعوا في الخير لهم ، جاء قول الحق تبارك وتعالى : " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم " ¹.

وجاء قوله تبارك وتعالى : " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً " ².

ثانياً : يأس الناس وهوانهم :

كان الناس يعيشون في المجتمعات التي وجدت حال بزوغ الإسلام داخل وخارج شبه الجزيرة العربية في حالة من البؤس والجهل والتخلف ، ناهيك عن امتهان آدمية الإنسان وانتهاك حرماته كبشر ، وكان الشعور السائد لدى أفراد تلك المجتمعات من جراء تلك الحياة وممارساتها القاهرة المدمرة هو اليأس والهوان والسخط علي تلك الحياة .

فقد كان المجتمع في أغلب الأحوال ينقسم إلي طبقتين : الأولى هي طبقة السادة الذين يملكون كل شئ ، ويسيروا الحياة وفق أهوائهم ومآربهم ، والثانية هي طبقة العبيد الملوكين المقهورين ، وهم بمثابة أحد ممتلكات أفراد الطبقة الأولى ، لا وزن لهم ولا شأن ، كل حياتهم لمصلحة السادة الكبار .

وكان أفراد الطبقة الأدنى يعيشون علي أمل الخلاص من هذه الوضعية المزرية ، وعندما جاء الإسلام ليعلن عن مبدأه الاجتماعي الشهير الذي مفاده المساواة بين الناس ، ولا فضل لفرد علي آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وأن كافة البشر هم عباد لله ، لقي هذا المبدأ

¹. سورة التوبة ، ١٠٠ .

². سورة الأحزاب ، ٢٣ .

في قلوب هؤلاء المهوورين هوأ وتوقأ ، جعلهم يُقبلون علي الإسلام للوهلة الأولى كأداة للخلص من حياتهم الكريهة والشعور بآدميتهم المفقودة ، ثم بعد ذلك ذاقوا حلاوة الإيمان .

لقد استحوذ الإسلام علي اهتمام الطبقة الأدنى في المجتمع ، ومن ثم انتشر سريعاً بين أفرادها ، حيث استشعر هؤلاء أن هذا الدين هو ناصرهم ومخلصهم مما هم فيه من اليأس والهوان ، وسيتمكن من إعادة التوازن إلي نصابه ، وترجيح كفتهم التي كانت دائماً في حالة بخس وغبن ، وعلي الجهة المقابلة استشعر أفراد الطبقة الأعلى أن سيادتهم مهددة بالانهيار ، وأنه في حالة التمكين للدين الجديد ، وإعادة الأمور إلي نصابها سيقفون علي قدم المساواة مع من كانت تزدرى أنفسهم ، ويعدونهم من الخدم والعبيد .

ومن ثم انقسم المجتمع بنفس تقسيمته الاجتماعية حول الدين الجديد ، الطبقة الأدنى وهي السواد الأعظم من المجتمع أقبلت علي الدين الجديد ، إما الطبقة الأعلى وطبقة السادة وأصحاب النفوذ ، فقد استشعروا بأن ذلك الدين سيسلب منهم السيادة والنفوذ ، ويؤلب عليهم من كانوا لهم تبعاً ، وفرضت عليهم تلك الظروف التصدي للإسلام دون هوادة أو حتى تفكير ، وأصبحت مسألة مجابهة الإسلام بالنسبة لهم حتمية تتعلق بمصيرهم ووجودهم ، وعندما حدثت المواجهة بين الكبراء والسادة الذين تصدوا للإسلام بغية منعه من الوصول إلي أفراد الطبقة الدنيا التي تمثل في المجتمع أغلبه ، والإسلام الذي فُرضت عليه هذه المواجهة فرضاً لا فكاك منه ، لم ينفذ المستشرقون وحتى بعض المؤرخين المسلمين ببصيرتهم إلي هذه الوضعية الاجتماعية - التي سبق إيضاحها - ، وروجوا جميعاً لمقولة أن الإسلام قد انتشر بحد السيف ، وحقيقة الأمر أن الإسلام من ذلك برئ ، فهو في أصله دين السماحة ، ولم يقم أبداً علي الصراع أو العنف .

صفوة القول إذن أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف كما يزعم بعض الجهلة والمريبين ، ولكنه أجبر علي قتال الذين حاولوا الحؤول دون وصول الدعوة إلي الشعوب وأفراد المجتمعات الذين استذلوا وغلبوا علي أمرهم ، ولعله من الأدلة الساطعة علي صحة ما تقدم أن الإسلام لم يجبر أحداً علي الدخول فيه ، حتى من أفراد الطبقة الدنيا في المجتمعات التي دخلتها الدعوة ، ومن الأدلة أيضاً أن كثيراً من البلدان بعد فتحها وكسر زعاماتها وطغاتها ظلت علي حالها المعتقدية ، سواء أكانوا من أهل الكتاب أو من الكفار عديمي الدين ، ومن ثم يتضح جلياً أن المقصد والغاية النهائية كانت الدعوة والتبليغ بالقول والفعل .

وظفقت الدعوة للإسلام بأساليبها - التي أشرنا إليها - في موضع خلا تفرز آثارها الإيجابية ، وشرع الناس يدخلون في دين الله أفواجاً .

يضاف إلي ما تقدم دليل آخر علي دحض فرية انتشار الإسلام بحد السيف ، يتمثل في أن كثيراً من البلدان في أقصى الشرق من شبه جزيرة العرب في الهند والصين واندونيسيا والفلبين قد دخلها الإسلام دون مواجهات تذكر مع التجار والمسافرين والمبشرين بالدين الجديد والدعاة إليه .

ثالثاً : سماحة الإسلام ورحابته :

ساعد كثيراً في إنجاز وإنجاح جملة التفاعلات التي تمت داخل المجتمعات التي دخلها الإسلام أو الأخرى التي وصلتها أخباره عبر وسائل الاتصال المتاحة آنذاك ، سماحة ذلك الدين ورحابته ، وما تضمنه من قيم ومبادئ ومثل ، وما حواه من طروحات خاصة بتنظيم كافة شؤون الحياة ، وما رافقه من مقومات وعناصر وأشكال الحضارة والمدنية ، وكل ذلك قد بين بجلاء قيمة ذلك الدين ، وأوضح بنقاء أنه لم يكن ديناً فقط ، ولكنه كان حياة

كاملة ، والملفت للانتباه ، وما زاد من التفاف الناس وتمسكهم بهذا الدين الجديد ، هو معاملته لزعماء المجتمع من طغاة العهود البائدة ، فقد رفق الإسلام بأولئك ، ولم يغلظ عليهم ، بل أتاح لهم فرصة النكوص علي عقببيهم ، والرجوع إلي جادة الصواب ، وتحولوا في كثير من الأحوال إلي دعاة لذلك الدين ، وابلوا في ذلك بلاءً حسناً .

المبحث الثاني

الانتشار في كافة الاتجاهات

لم يحدد الإسلام لانتشاره اتجاهات بعينها ، بل انتشر في كافة الاتجاهات ، فهو دين للناس جميعاً لا يعرف جنساً ولا عرقاً ، ويمكن متابعة انتشار الإسلام واتجاهات ذلك الانتشار من خلال ما يلي :

أولاً : الاتجاه نحو الشرق :

ينبغي أن نؤكد مرة أخرى علي أننا لم نقصد بمتابعة الانتشار الإسلامي في كافة الاتجاهات دراسة تاريخية دقيقة ومفصلة لعمليات الفتح والسيطرة علي البلاد والمناطق المختلفة ، فذلك النهج غير ذي جدوى في هذا الموضع ، ولكننا قصدنا الاستدلال بذلك الانتشار علي كونه أحد العناصر المهمة والمقومات الأساسية للحضارة الإسلام .

وإذا انتقلنا للحديث عن الاتجاه الأول الذي سلكه الإسلام في سبيل الانتشار والذيع ، وحمل معه حضارته وثقافته ، فهو الاتجاه نحو الشرق حيث كانت تريض الحضارات القديمة ذات الأصول والجزور التاريخية الضاربة ، ومقدرات القوة غير العادية ، وكانت أول تلك الحضارات هي الحضارة الفارسية ، ثم تلا ذلك حضارات أخرى متفرقة في منطقة وسط آسيا ذات الطبيعة القاسية والظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المتفردة ، وهذه الحضارات وإن كانت أقل شأواً من الحضارة الفارسية في العمق التاريخي والمقدرات الثقافية ومكنات القوة ، إلا أنها كانت ذات وزن يعتد به عندما تدخل في صراعات تحدد مستقبلها ومصيرها ، لتتابع التحليل :

كان الرسول الكريم علي علم كامل وكذا صحابته بقوة إمبراطورية فارس التي تجاور الإسلام من ناحية الشرق ، وهو لا يزال قوة وليدة لا تملك من العتاد الحربي إلا أقله وأبسطه ، ومن استراتيجيات الحرب وحيلها إلا المتواضع ، ولم يعهدوا كثيراً من فنونها وضروبها وأساليبها .

وإذا كان ما تقدم هو الواقع العملي والشكل المرئي ، إلا أن هؤلاء القوم أقصد المسلمين الأوائل كانوا يملكون قوة أخرى خارقة لا توازيها العدد والمعدات ، ولا تضارعها الخطط والاستراتيجيات ، ولا تضاهيها المهارة والحنكة والحرفة في القتال ، تلك كانت قوة الإيمان بكل ما تعنيه من استهانة بالحياة في سبيل كلمة " لا إله إلا الله " ومن إقبال علي الحرب بإقدام ورغبة في الموت الذي لا جزاء له إلا الجنة ، وهكذا كانت قوة الإيمان هي أهم ما يملكه جماعة المسلمين ، عندما شرعوا في نشر الإسلام والتقدم نحو أعتى قوتين موجودتين في ذلك الزمان وهما : إمبراطورية آل ساسان التي كان علي عرشها كسرى أنوشروان الساساني الفارسي والأخرى هي الإمبراطورية الرومانية .

ولما كان المسلمون علي يقين من قوة جارهم الشرقي العملاق ، وعلي يقين كذلك من أنهم لن يسلموا من أذاه وأطماعه ورغبته في وأد هذه الدعوة ، وهي لا تزال في المهد ، وبصفة خاصة أنها تناهض دين فارس وتمقته ، وترغب في القضاء عليه ، لذا فقد كان عليهم أن يفكروا في الاستعداد لتلك القوة إن عاجلاً أو آجلاً ، وقد زكي ذلك وعجل به التحرشات التي بدأت تمارسها الدولة الفارسية تجاه المسلمين .

ومعلوم تاريخياً أن إمبراطورية فارس كانت عبارة عن مجتمع يمتلك حضارة قديمة وثقافة ذات شأن ، قوامها الموروث الديني القائم علي القوة والعنف والمستمد من عبادة النيران ،

وكان المجتمع الفارسي مجتمعاً محكماً تسوده وتحكمه قوانين وأنظمة صارمة منبعثة من قوة الدولة التي يجلس علي عرشها إمبراطور شعاره القوة ودأبه الحرب والنزال .

وكان من المنطقي إزاء هذا الوضع أن يكون المسلمون علي الجهة المقابلة أكثر قوة وأكثر استعداداً وجاهزية لمقابلة نِدِّ لا يستهان به ولا بقوته ، ومن ثم فقد كان لزاماً عليهم أن يبادروا وإلاً فسيبيتون لقمة سائغة أمام هذا الجار القوي العاتي .

لقد كان ذلك هو الاختبار الأول لقوة المسلمين خارج أراضيهم ، وفي مواجهة أجناس غير عربية وأعراق مختلفة ، إن هدف المسلمين - كما سبق القول - هو الدعوة إلي الإسلام ونشره بين شعوب الأرض ، إلا أنه في هذه الحالة حال دون ذلك حاكم قوى وعنيد بل جبار ، يأتصر بأمره جيش منظم لعله من أقوى جيوش الأرض في ذلك الزمان ، ووراءه شعب كثيف ومجتمع متحضر يقتنع بحكامه ونظامه ، ويعتق ثقافة يعتز بها ، كل ما تقدم عندما يوضع في كفة ويقابله في الكفة الثانية رغبة المسلمين ومضاؤهم علي نشر الدعوة ، فلا بد أن ترجح الكفة الأولى ، هذا ما يمليه المنطق وإلي أن يلتقي الجمعان .

إن الدعوة لا بد أن تبلغ إلي الشعب ، والإسلام لا بد أن يصل إلي الناس ، وعليه فلا بد من إزالة الحائل والعائق الذي يحول دون ذلك ، ومن ثم فلا مفر من مواجهة من يحولون دون وصول الدعوة ويعوقون وصول الإسلام ، ولم تكن الحرب حرفة لدى المسلمين أو هواية ، ولكنها كانت ضرورة تستوجبها إلزامية نشر الدعوة ، فهي فريضة وحتمية يتطلبها إصرار الحكام علي الحؤول دون وصولها إلي الشعوب .

وبعد حرب شرسة بين المسلمين والفرس فتح الله للمسلمين هذه البلاد ، ودخل أهلها في دين الله أفواجاً ، وهنا يحسن إزجاء هذه الملاحظة حيث اعتاد المؤرخون والمستشرقون أن يطلقوا علي البلاد التي يفتحها المسلمون أمام الدعوة الإسلامية " البلاد التي تم ضمها " أو

“ السيطرة عليها ” في حين أن ذلك غير وارد في أية أدبيات مأثورة عن المسلمين الأولين ، بل كانوا يطلقون علي ذلك “ فتحاً ” حيث فتح الله لهم هذه البلاد أمام دعوتهم الميمونة للإسلام الحنيف ، ولم يكن لهم مآرب تتجاوز ذلك ، فقد قال تعالى في ذلك : “ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ”¹.

وقال تعالى : “ إذا جاء نصر الله والفتح ”².

وحقيقة الأمر أنه عندما تم فتح بلاد فارس أضيفت إلي قوة المسلمين قوة أخرى عظيمة ، ودخل الفرس في دين الله انبهاراً بالدين الجديد الذي حطّم ما كانوا يعبدون من دون الله ، وكذا رغبة وابتهاجاً بالخلاص من طغيان آل ساسان وجبروتهم وكان ذلك هو شعور الطبقة المطحونة بشكل خاص ، وفي مرحلة تالية وبعد وقت قصير ذاق أبناء فارس طعم الإسلام ، واستساغوا سماحته ورحابته ، وخبروا قيمه ومبادئه ، وتمرسوا نظمه وأصوله ، فتحولوا إلي قوة داعمة وقدرة حافزة أدت إلي استمرارية المد ودوام الفتح المبين .

واصل المسلمون نشر دعوتهم بالاتجاه شرقاً وشمالاً نحو المناطق الداخلية ووسط آسيا ، وكانت توجد في هذه المناطق ممالك ودويلات صغيرة مكونة من شعوب ذات أصل إيراني ، وكانت هذه الممالك والدويلات عادةً ما تستعين بالأتراك أو بالصينيين لمواجهة قوة المسلمين الفاتحين ، إلا أن الأمر انتهى بفتح هذه المناطق أمام الإسلام ودعوته .

وكان الإسلام بفضل هذه الفتوحات وما يعقبها من انتشار يكتسب قوة الدفع التي تسهّل علي المسلمين مواصلة تقدمهم ونشر دعوتهم ، ومن ثم تقدم المسلمون فعبروا نهر جيحون وفتحوا بلاد ما وراء النهر وهي أفغانستان الحالية ومعها شمال إيران وتركيا ، ومعلوم ما

¹ سورة الفتح ، ١ .

² سورة النصر ، ١ .

تتسم به هذه المناطق من طبيعة قاسية وجغرافية وعرة ، وانتهى الأمر بفتح وسط آسيا أمام الإسلام الحنيف .

ولم يكن أمام المسلمين من وسيلة ينشرون بها الإسلام إلا الحرب ، ولم تكن الحرب أبداً ضد الشعوب ، فالشعوب هي المستهدفة من وراء الدعوة وهي المخاطبة بها ، ولكن الحرب كانت هي الملاذ الأخير أمام المسلمين عندما يحال بين المسلمين وبين توصيل دعوتهم إلي تلك الشعوب ، ولم يؤخذ علي جيش المسلمين أن أعمل سيفاً في شعب من الشعوب ، ولكنه كان يحارب من يريد الحرب ويحول دون ولوج الدعوة .

تقدم الفتح الإسلامي ليعبر جبال القوقاز باتجاه جنوب روسيا ، وفي المناطق الواقعة جنوب القوقاز واجه الفتح الإسلامي ممالك ودول عدة من الترك الذين اشتهروا بالقوة وشدة البأس ، إلا أن تصميم المسلمين وعزمهم كان كفيلاً بتطويع تلك القوة وتمكينهم من نشر دعوتهم ، وتحولت تلك الممالك والدول إلي محطات ومواقع إستراتيجية تتزود منها الجيوش العربية الإسلامية بالمؤن والإمدادات وهي في طريقها لعبور جبال القوقاز ومواصلة نشر الدعوة الإسلامية في جنوب روسيا .

وبالفعل عبر الفتح الإسلامي المبين جبال القوقاز وواصل زحفه شمال تلك السلسلة الجبلية الشهيرة ، وكانت موسكو الحالية قاب قوسين أو أدنى من الفتح الإسلامي ، ولكن التواجد الإسلامي في جنوب روسيا شمال جبال القوقاز لم يدم طويلاً بسبب بعض الإشكاليات الاستراتيجية وكذا بفعل بعض الظروف السياسية .

وبالنسبة للإشكاليات الاستراتيجية ، فقد تمثلت في بعد هذه المناطق عن مركز الخلافة الأموية في ذلك الوقت ، وضعف الإمدادات العسكرية التي كان يتطلبها الفتح والتواجد الإسلامي في تلك المناطق ، وبصفة خاصة أنها مناطق شديدة الوعورة قاسية المناخ ، وأهلها

من ذوي القوة والبأس وشديدي الحرص علي دينهم الذي كان مزيجاً من المسيحية والوثنية والمانوية وأحياناً عبادة المجاري المائية .

أما بالنسبة إلي الظروف السياسية ، فقد أدى انتهاء الخلافة الأموية ، وانتقال الخلافة إلي العباسيين في بغداد إلي إنهاء الوجود الإسلامي كلياً في هذه المناطق بشكله الرسمي ، حيث انسحب القائد الفاتح لهذه المناطق وهو مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين .

ولعل الملاحظة الجديرة بالذكر والاعتبار في هذا الصدد هي أن الدين الإسلامي واصل انتشاره في هذه المناطق سلمياً وتمركز في تجمعات حافظت عليه وعملت علي نشره والدعوة إليه مدة طويلة من الزمن .

من تركيا التي واجهت الفتح الإسلامي بقوة وعنق وتأبت علي الإسلام والدعوة الإسلامية فترة من الزمن غير قصيرة ، أنتقل الإسلام برفقة التجار والدعاة المبشرين نحو الشمال الغربي إلي شعوب البلغار ، الذين اعتنقوا الدين الجديد وحافظوا عليه بالرغم من وصوله إليهم عبر أناس ينقصهم التفقه والتعمق فيه ، وكانوا في توق وحاجة إلي من يبصرهم بالأصول والأسس من أبنائه الأصليين ، ومن ثم فقد ظل أبناء الشعب البلغاري دائمي التساؤل والاستفسار عن الكثير من المسائل الدينية في العبادات مثل الصلاة والصيام وغيرها من المسائل ، نظراً للاختلاف الشديد في عوامل المناخ والطقس ، وكان ذلك هو أقصى ما وصل إليه الإسلام من ناحية الشمال الغربي .

❖ الهند :

لقد توقف الفتح الإسلامي من ناحية الشرق بضم إيران ووسط آسيا إلي الإسلام ونشره في ربوع هذه المناطق الواسعة ، وقد كانت البلاد التي يفتحها المسلمون تزيدهم قوة وتضيف إلي مقدراتهم فيندفعون بقوة أكبر وهكذا ، وكان الانتشار في المرحلة التالية عن طريق

الاختلاط والعلاقات والمعاملات والتبادلات التجارية ، وذلك ما حدث بخصوص نشر الإسلام في الهند وإندونيسيا والصين .

وعند متابعة دخول الإسلام للهند نلاحظ أنه قد دخل وانتشر في هذه الدولة المترامية الأطراف عبر ثلاثة طرق :

– الطريق الأول : حيث دخل الإسلام إلي الهند عن طريق السواحل الجنوبية ، وقد وصل المسلمون إلي هذه السواحل بصفتهم دعاة للإسلام وتجار ، وأقاموا علي الساحل الجنوبي من الهند مستعمرات في " الموبلا " علي ساحل " مالابار " .

– الطريق الثاني : حيث دخل الإسلام إلي السند وجزء من منطقة البنجاب عن طريق الفتح ، وهو الجزء الوحيد من الهند الذي تم نشر الإسلام فيه عن طريق الفتح ، ويعود التخطيط لفتح هذه المنطقة من الهند إلي عهد عمر بن الخطاب ، حيث خطط بعض قادته إلي فتح هذه المنطقة ، ولكن بن الخطاب لم يشجع ذلك ، وتوقف الأمر عند هذا الحد ، وفي عهد الأمويين أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي بعثة قادها محمد بن القاسم تمكنت من فتح السند وجزء من البنجاب .

– الطريق الثالث : وعبر هذا الطريق تم الخلط بين الفتح والهجرة والتجارة من خلال ممرات أفغانستان الشمالية الشرقية ، وبدأت هذه الانطلاقة بفتوحات محمود الغزنوي وتأسيس الدولة الغزنوية في البنجاب وكانت عاصمتها لاهور ، وتلا ذلك الغوريون ثم الماليك .

وهكذا انتشر الإسلام في الهند عن طريق الفتح مرة وعن طريق الدعوة السلمية والتجارة والعلاقات الاجتماعية مرات ، وهذا أقوى دليل علي أن الحرب لم تكن حرفة المسلمين أو

طريقتهم لنشر دينهم ، بل لم يكن يتم اللجوء إليها إلا عند الضرورة القصوى ، وكانت الطرق الأكثر شيوعاً هي نشر الدعوة الإسلامية بالطرق ذات الصبغة الإنسانية .

❖ إندونيسيا :

أوضحنا فيما سبق أن الإسلام قد توطد في أماكن عديدة من الهند ، وكانت مناطق تمركز الإسلام في الهند بمثابة محاور ارتكاز أو منطلقات انطلق منها الإسلام في موجات متتابعة ومتدرجة في اتجاه الأرخيبيل الإندونيسي ، وقد جاء الإسلام إلي إندونيسيا من الجهة الشمالية الغربية ، وبدأ من شمال " سومطرة " عند طريق " ملقا " التي كان لها مع " جاوا " علاقات وطيدة ، ومنها انتشر في بقية الأراضي .

وعندما دخل الإسلام إلي إندونيسيا حل محل الديانة الهندوسية البوذية ، وجاء عن طريق التجار والدعاة ، وكان اعتناق السكان للإسلام بسبب سماحته والقيم التي جاء بها ، ولم يكن يلجأ إلي قوة أو يفرض بالعنف .

والإسلام حديث في إندونيسيا ، فقد دخلها في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ، وانتشر في هذه البلاد واستقر فيها ، بسبب حماس السكان الشديد له ودفاعهم عنه ضد الديانات الأخرى وبالذات المسيحية .

❖ الصين :

من مناطق ما وراء نهر جيحون في وسط آسيا تقدم الإسلام في اتجاه الصين عبر التجار وحركات التبشير والدعوة الإسلامية ، وازدهرت مستعمرة " كانتون " التي تمركز بها المسلمون التجار والدعاة ، وكانت طرق التجارة والتبادلات تتم عن طريق البحر كما كانت كذلك عن طريق البر من مناطق وسط آسيا .

ثانياً : الاتجاه نحو الغرب :

نقصد بانتشار الإسلام صوب الغرب اتجاهه ناحية الغرب وعبور الممر البري الذي يربط قارة آسيا بقارة أفريقيا ، ثم سيره بمحاذاة ساحل البحر المتوسط في شمال أفريقيا إلي أن وصل إلي المحيط الأطلنطي ، وعلي هذه الشريط الساحلي دخل الإسلام مصر ومنها انطلق إلي صحراء ليبيا ثم دخل إلي تونس والجزائر الحالية إلي أن وصل إلي أقصى الغرب في مراكش .

ولاحظنا عند حديثنا عن الاتجاه الذي سلكه الإسلام ناحية الشرق أنه قد صادف حضارات ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ ، كما صادف شعوباً همجية لا تعرف تحضراً ولم تعهد مدنية ، وبرزت حينئذ براعة الإسلام عندما تعامل مع كل حسب حصيلته من الحضارة ومبلغه من الثقافة ، فنشر دعوته تارة بالاتصال والتواصل والحوار ، وتارة أخرى بالفتح عندما يفرض عليه ذلك .

وفي الاتجاه ناحية الغرب حسب الطريق الذي وصفناه كان الوضع مختلفاً من جهات عدة: فبعض البلاد كان يقع تحت الحكم المباشر لإحدى الإمبراطوريات القوية في ذلك الوقت وهي الإمبراطورية الرومانية ، وهذه كانت حال مصر التي تقع في أقصى الركن الشمالي الشرقي للقارة السمراء المجهولة بالنسبة للمسلمين ، والتي تعد المعبر البري بين آسيا منبع الدعوة الإسلامية وأفريقيا التي تتوجه نحوها الأنظار بأمل يشوبه الغموض ، وبعض البلاد كان بمثابة شعوب مجهولة لم يعهدوا المسلمون ولم يسمعوها عنها من قبل ، فكان الأمر جد مختلف ، ولكن في ذات الوقت كان للإسلام آلياته التي مكنته من التعامل مع كل حدث حسب وقعه وكل وضع وفق قدره .

كانت مصر أول نقاط الجهة الغربية لشبة الجزيرة العربية التي يتوافر عنها مزيد من المعلومات والمعرفة لدى المسلمين الأوائل ، وقد عُرفت مصر جيداً من خلال ما جاء عنها في القرآن الكريم ، ومن خلال العلاقات المحدودة التي نشأت بين دولة الإسلام في المدينة المنورة وبين هذا المركز ذي الإشعاع الحضاري المعروف .

وقد أوصى الرسول الكريم خيراً بأبناء هذا البلد في حديث صحيح حيث قال صلى الله عليه وسلم " استوصوا بمصر خيراً ففيها خير أجناد الأرض " ، ومعلوم أن السيدة ماريّا زوج الرسول الكريم وأم ولده إبراهيم هي مصرية الأصل زفها إليه المقوقس ملك مصر تحت سيادة الإمبراطورية الرومانية .

ما تقدم كان كفيلاً بأن يمنح مصر موقِعاً متميزاً في تفكير صانع القرار في دولة الإسلام ، حيث أيقن بأن هذه الأمة ستضيف إلي الإسلام زخماً لا يستهان به ، وستمثل منطلقاً متقدماً للإسلام نحو القارة المجهولة علي محورين : الأول باتجاه الغرب بمحاذاة الساحل ، والثاني باتجاه الجنوب إلي السودان بتتبع مجرى النيل ، ومن ثم كان تفكير عمر بن الخطاب بالتحرك نحو مصر ونشر الإسلام فيها .

وكان الوضع المعتقدي والاجتماعي في مصر يحتاج إلي مزيد من التفكير والتدبر ، فسكان مصر جميعهم من المسيحيين أهل الكتاب ، ولهم ذمة في الإسلام ، وبالتالي فالفتح سوف يختلف وسيكون التركيز بالأساس علي الدعوة والتبليغ ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليحتفظ بدينه ، هكذا دخل الإسلام مصر ولم تكن ثمة مقاومة يمكن أن تذكر إلا من بعض الحاميات العسكرية ذات الصفة الرسمية التي تحصنت بحصونها وثكناتها ، ورفضت التسليم ، ولكن سرعان ما أسلمت زمام أمرها للفتاحين المسالمين .

ووقف أهل مصر على حقيقة هذا الدين وطبيعة الفاتحين والدعاة ، ولم يلبثوا أن أعلنوا الإسلام ديناً لهم وتخلو عن المسيحية وتوثقت الصلات والوشائج بين أهل البلاد والفاتحين بسرعة ملفتة ، وأصبحت مصر أهم مركز من مراكز الإسلام في إفريقيا بل والدولة الإسلامية آنذاك ، أما بالنسبة إلي السيادة للإمبراطورية الرومانية فقد انتهت رسمياً بدخول المسلمين إلي مصر .

وبدت سماحة الإسلام ورحابته عندما سمح لأهل البلاد أن يظلوا علي دينهم ، واحتفظ جزء من الشعب المصري بديانته المسيحية في الوقت الذي اندمج هؤلاء المسيحيون في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل يصعب معه القول بأنهم علي غير الإسلام ، واصبحوا جزءاً من نسيج مجتمع مصر الإسلامية وعنصراً من عناصره الحضارية والثقافية.

❖ صحراء ليبيا وبلاد المغرب :

أصبحت مصر - كما سبق الإيضاح - مركزاً متقدماً ومنطلقاً إستراتيجياً مهماً لدولة الإسلام نحو وسط وعمق أفريقيا جنوباً ، ونحو غربها بمحاذاة ساحل البحر المتوسط حتى المحيط، وتم فتح برقة بعد مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وفي العصر الأموي نشطت حركة الفتح ونشر الدعوة الإسلامية في أفريقيا شمال الصحراء الكبرى بمحاذاة الساحل ، وكذا جنوبها شرقاً وغرباً ، وتحركت الدعوة الإسلامية في الاتجاه الأول بسرعة ملحوظة ، وتمثل المحط الثاني بعد مصر وبرقة في صحراء ليبيا ، حيث كانت هناك عدة مراكز ساحلية قوامها قبائل بدوية شبه متحضرة دخلت في الإسلام دون مقاومة تذكر ، وكانت الصحراء الليبية تعاني من قلة السكان وتواضع حجم المراكز العمرانية علي الساحل

، وكان أهم مركز استراتيجي علي ساحل ليبيا في طرابلس حيث انطلق منه المسلمون لفتح تونس .

ثم واصل المسلمون تقدمهم غرباً باتجاه المحيط وبمحاذاة ساحل المتوسط ، فدخلوا قرطاج وهي تونس الحالية ، بعد أن فتحوها عبر معارك متعددة ، وكانت تابعة للإمبراطورية الرومانية وتعرف بأفريقيا الرومانية ، وكان سكان هذه البلاد خليطاً من البربر وهم سكان هذه المناطق الأصليين ، وآخريين ينحدرون من أصول فينيقية جاءت إلي هذه البلاد من الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وعندما دخل الإسلام إلي هذه المنطقة لم يلاق مقاومة إلا من البربر الذين أعلنوا استيائهم في بادئ الأمر ، ولم يلبثوا أن دخلوا في الإسلام واعتنقوه وحملوا لواء الدعوة في مناطق جنوب أوربا وأسبانيا ، أما المسيحيون من أهل تونس فقد دخلوا الإسلام سريعاً وتحمسوا للدعوة الإسلامية .

وعندما عبر المسلمون حاضرة قرطاج ميممين غرباً صوب المحيط جوبهوا بشعوب بربرية شديدة المراس وهم سكان الجزائر ومراكش الحالية الأصليين ، وقاومت هذه الشعوب الإسلام والدعوة الإسلامية بعنف وضراوة ، وأعربوا عن رفضهم للدين الجديد في أول الأمر ، إلا أنهم لم يستمروا في مقاومة الدين الجديد بقيمه ومبادئه التي بهرتهم وجذبتهم لاعتناقه في سهولة ويسر ، والملفت أن هذه الشعوب حملت بعد لواء الدعوة والحضارة والثقافة الإسلامية إلي الأندلس وجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط مثل مالطا وكريت وقبرص .

ومن السهولة تفسير التجاوب السريع من سكان مناطق المغرب وصحراء ليبيا وإجماعهم شبه المطلق علي اعتناق الدين الجديد ، وتفسير ذلك مرده إلي أن شعوب تلك المناطق كانت في معظمها من عديمي الديانة أو لديهم ديانات محلية محدودة الانتشار والتأثير ، ومن ثم فلم يكن هناك ديانات ذات وزن وتأثير يمكن أن تزاحم الإسلام في عقول وقلوب

تلك الشعوب ، وذلك علي العكس مما حدث في مصر حيث وجدت المسيحية التي كانت الديانة الرسمية لدى معظم أبناء الشعب المصري ، وما حدث كذلك في تونس التي كانت بمثابة رأس رمح للإمبراطورية الرومانية في أفريقيا ، ولكن المسيحية سرعان ما انسحبت أمام الإسلام .

لقد كانت عمليات دخول الإسلام ونشر الدعوة في شمال أفريقيا بدءاً من مصر وانتهاءً بمراكش علي ساحل الأطلنطي في غاية الأهمية للإسلام وكذا للدعوة إليه ونشره ، فقد مثلت شعوب هذه المناطق والبلاد قوة دفع مهمة لعمليات الفتح ونشر الدعوة ، التي تواصلت بعد ذلك في مناطق جنوب أوروبا في الساحل الشمالي للبحر المتوسط وفي صقلية وفي أسبانيا .

ثالثاً : الاتجاه نحو الشمال :

اتجاه الإسلام وانتشاره في المناطق الشمالية يشبه جزيرة العرب منبع ذلك الدين يشبه الاتجاه نحو الشرق ، وذلك من ناحية أنه في كلا الاتجاهين توجد إمبراطورية ذات حضارة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ ، كما تمتلك مكنات ومقدرات تمكنها من الصمود والتصدي ، إلا أن الاتجاه شمالاً بالإسلام ودعوته قد صادفه الكثير من الصعوبات والعقبات التي جعلته لم يتقدم كثيراً في هذا الاتجاه ، ولم يرسخ أركانه كما فعل في الاتجاه شرقاً ولذلك أسبابه العديدة التي سنذكرها بعد قليل .

كان أول فتح للإسلام في اتجاه الشمال في عهد الرسول الكريم حيث تم إجلاء اليهود عن واحة " خيبر " التي كانوا يتفكزون فيها علي مقربة من المدينة المنورة باتجاه الشمال علي الطريق إلي الشام حوالي مائة ميل ، وكانت " خيبر " أهم معقل لليهود في شبه الجزيرة العربية ، وقد قاد الرسول الكريم بنفسه هذه البعثة التي كان قوامها حوالي ألفاً

وستمائة رجل ، وبعد ستة أسابيع من الحصار فتح المسلمون خيرير بحصنها المنيع ،
وسمح الرسول الكريم لليهود بالاحتفاظ بأهلهم وممارسة دينهم ، وأفضت المفاوضات بين
المسلمين واليهود إلي أن يبقى اليهود في حقولهم ويقوموا بفلاحتها مقابل دفع نصف
المحصول للمسلمين ، إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب قد قام بعد ذلك بطرد اليهود من
خيرير نهائياً تخلصاً من متاعبهم التي لا تنتهي.

وواصل المسلمون في حياة الرسول الكريم نشر الإسلام والدعوة إليه باتجاه الشمال فتقدموا
نحو بيت المقدس وفلسطين ثم سوريا .

وعند دراسة الاتجاه بالإسلام ونشره نحو الشمال كأحد أهم مقومات وعناصر الحضارة
الإسلامية ، ينبغي إيضاح أنه سيتم دراسة هذا الاتجاه من خلال محورين علي النحو
التالي :

❖ المحور الأول :

الاتجاه شمالاً ثم غرباً عبر الشام فجنوب اليونان وجنوب إيطاليا بما في ذلك منطقة البلقان
وجزر قبرص وكريت وصقلية في البحر المتوسط ، أي حوض البحر المتوسط الشرقي
الأوسط.

❖ المحور الثاني :

الاتجاه غرباً عبر شمال أفريقيا أو الساحل الأفريقي للبحر المتوسط وصولاً إلي المحيط ، ثم
الاتجاه شمالاً إلي أسبانيا وجنوب فرنسا مروراً بمضيق جبل طارق .

ويلتقي المحوران في نهاية المطاف في جنوب إيطاليا وصقلية ، ويحمل المسلمون الذين
سلكوا هذين المحورين معهم الدعوة إلي الإسلام ونشره في المناطق التي مروا بها ، وحملوا

كذلك الحضارة والثقافة الإسلامية ، إلا أن الدعوة كانت قوام الحضارة ومخ الثقافة ،
والتفصيل فيما يلي :

❖ المحور الأول :

أوضحنا لتونا أن المحور الأول انطلق من المدينة المنورة عاصمة الإسلام الزاهرة في فجره
الأنور متجهاً شمالاً ميمماً صوب الشام التي هي فلسطين الحالية ، والتي تضم آثاراً روحية
دينية ذات طبيعة خاصة للإسلام كمسرى الرسول الكريم قبل عروجه إلي السماء ،
وللمسيحية كمقدسات متعددة ، ولليهودية كذلك كآثار اختلطت إزاءها الأساطير بالوقائع
التاريخية والعقائد الدينية ، هكذا كانت الشام [فلسطين] بالنسبة للإسلام ورغبة أبنائه
الأولين في نشره وتبليغه إلي العالمين .

وتحرك جيش الفتح الإسلامي إلي الشام في عهد عمر بن الخطاب ودخل الإسلام بيت
المقدس ، وضرب أروع الأمثلة علي سماحته وسعته ورحابته ، حينما لم يتعرض المسلمون
لأي معلم من معالم المدينة المقدسة ، ولم يجبروا أحداً من ساكنيها علي تغيير ديانتهم ، بل
لم يفعلوا أكثر من تبليغ رسالة الإسلام بما أوتوا من وسائل وأدوات قوليه إرشادية وفعلية
سلوكية ، وكان التجاوب مع الدين الجديد بقيمه ومبادئه جديراً بالاعتبار ، إذ أن مبدأ
الاختيار والمفاضلة بين المسيحية التي كانت ضاربة بجذورها روحاً ونظاماً وبين الإسلام
بمثله وأخلاقياته ذلك الوافد الجديد الذي هب حاملاً بصحبته نسمات القيم والتوحيد
والطهر والنقاء ، قد أفضيا إلي اختيار الإسلام وتزكيته .

وعلي نفس هذا المحور المنبعث من مدينة الرسول الكريم واصل الفتح الإسلامي زحفه
باتجاه الشمال حاملاً معه الدعوة إلي دين الله حتى وصل إلي إحدى قلاع الإمبراطورية
الرومانية المتقدمة في الشرق القديم والحوض الشرقي للبحر المتوسط وهي سوريا ، وعبر

معارك ومناورات متعددة تم فتح سوريا ، التي كانت تحت السيادة الرومانية في موقعة شهيرة هي معركة اليرموك التي حسمها المجاهد الإسلامي الأشهر خالد بن الوليد .

ودخل الإسلام سوريا علي إثر الفتح وانتشرت الدعوة في أرجاء البلاد وحل الإسلام بشكل مكثف محل المسيحية ، ولم يدخل أحد الإسلام إلا مختاراً ، واحتفظ عدد من السكان غير قليل بدينه ، وأيقن أهل البلاد أن الدين الجديد لم يأت ليحل محل المسيحية فازدادت مكانته وسمت منزلته ، حتى لدى المسيحيين أنفسهم ، وتعایش الجميع في سوريا الإسلامية تسعهم رحابة الإسلام وتظلمهم سماحته .

وكان الطريق باتجاه الشمال مفتوحاً وميسراً أمام الفتح الإسلامي ، فواصل المسلمون نشر دينهم حتى تجاوزوا جبال الأمانوس وطوروس حتى وصلوا إلي أبواب كيليكية ، وكذلك ادخلوا بحر مرمرة ضمن أراضي الفتح الإسلامي ووصلوا إلي القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية وحاصروها ثلاث مرات ، ونشر الإسلام دعوته في هذه المناطق ، حتى أنه في كل مرة كان يحاصر فيها المسلمون القسطنطينية كانوا يتركون فيها أثراً من الآثار الإسلامية ، وبشكل أكثر تحديداً في ضواحيها ، ومن أشهر تلك الآثار التي لا تزال قائمة حتى اليوم مسجد أبي أيوب الأنصاري الذي قتل هناك أثناء الحصار الذي قام به مسلمة بن عبد الملك لعاصمة الإمبراطورية .

من هذه الطريق ومن طرق أخرى دخل الإسلام إلي السواحل الجنوبية لليونان وجزيرة كريت ، ولم يكن ذلك عن طريق الفتح المباشر ، ولكنه جاء نتاجاً لمجهودات فردية ، إضافة إلي الحركة التجارية والتبادلية والتبشيرية القوية التي ازدهرت في عهد الأمويين ، ودخل الإسلام هذه البلاد وأهلها يعتنقون ديانة راسخة هي المسيحية ، وبالرغم من ذلك وجد الدين الجديد مكاناً رحباً وعقلاً خصباً ، فأسس مراكز وتجمعات إسلامية لا يستهان

بها علي الحافة الجنوبية لليونان وجزيرة كريت ، وإن كانت هذه الوضعية قد تغيرت مع الزمن وانحسر فيها المد الإسلامي ، فهذا ليس موضوعنا الآن .

وكانت آخر امتدادات هذا المحور من محاور المد والانتشار الإسلامي متمثلة في وصول الإسلام والدعوة الإسلامية إلي الشواطئ الجنوبية لإيطاليا ، وتأسست مراكز إسلامية قوية في باري وتارانتو ، ومن هذه النقاط المؤثرة انتشر الإسلام شمالاً ليس عن طريق الفتح هذه المرة ، ولكن عن طريق التجارة والتبادل والدعوة والتبشير .

❖ المحور الثاني :

أوضحنا أيضاً أن المحور الثاني من محوري الاتجاه شمالاً لنشر الإسلام قد تم من خلال الاتجاه أولاً من المدينة المنورة غرباً باتجاه المحيط الأطلنطي بمحاذاة الساحل الشمالي لإفريقيا ، مروراً بمصر والإسكندرية وبرقة وصحراء ليبيا ثم طرابلس ثم تونس وانتهاءً بالمغرب الأقصى [مراكش] ثم الاتجاه من مضيق جبل طارق وعبوره شمالاً إلي شبه جزيرة أيبيريا [أسبانيا] ، ومن هنا تفرع هذا المحور إلي فرعين : الأول واصل الاتجاه شمالاً ، والثاني اتجه شرقاً مرة أخرى ، ولكن هذه المرة علي الحافة الجنوبية لأوروبا بمحاذاة ساحل المتوسط حتى وصل إلي جنوب إيطاليا وصقلية حيث يلتقي مع المحور الأول .

لقد تحدثنا علي المحور الأول عن الإسلام في جنوب إيطاليا ، وما يمكن إضافته هنا هو أنه بالإضافة إلي الإسلام الذي توافد مع التيار المتدفق من المحور المنبعث من الجنوب من المدينة المنورة مروراً بسوريا كان هناك تيار آخر متدفق من المحور المنبعث من الغرب من شبه جزيرة أيبيريا مروراً بجنوب فرنسا وصب التياران علي الحافة الجنوبية لإيطاليا .

سار الإسلام كما أسلفنا بمحاذاة ساحل المتوسط في شمال إفريقيا متجهاً غرباً حتى وصل إلى المحيط الأطلنطي ، ومن أضيق نقطة بين البحر المتوسط والمحيط عبر متجهاً في اتجاهين : الاتجاه الأول واصل التقدم شمالاً حتى غطى شبه جزيرة أيبيريا [أسبانيا] ، الاتجاه الثاني عبر جبال البرانس وتقدم إلى الشمال الشرقي ، وكانت نتيجة هذه المسيرة كالاتي : تم فتح شبه جزيرة أيبيريا [أسبانيا] وازدهر فيها الإسلام ، ومثلت الأندلس المركز الثاني بعد عاصمة الأمويين في دمشق ، ولم تلبث أن انتقلت إليها دولتهم بالكامل حال انتقال الخلافة الرسمية إلى بغداد .

وصل الإسلام إلى الأراضي الفرنسية عبر جبال البرانس ، وتجاوزها إلى جبال الألب في سويسرا وشمال إيطاليا ، ولم يقدر للإسلام أن يؤسس مراكز مستقرة ودائمة في هذه المناطق نظراً لطول الطريق وكثرة المخاطر التي تحفه وتطول قوافل الإمدادات التي تنطلق من القاعدة اللوجستية المتقدمة في شبه جزيرة أيبيريا [أسبانيا] وشمال أفريقيا .

بصحبة هذا الركب وصل الإسلام إلى جزيرة صقلية في البحر المتوسط مع القائد العربي الإسلامي أسد بن القرات من المغرب ، ومعه العرب المسلمون المغاربة قوام جيشه ، وقد جاءوا أساساً من تونس ، وانتشر الإسلام في الجزيرة وبصفة خاصة في نصفها الغربي بشكل مكثف ومتأصل ، في حين ظل أقل كثافة وتأصل في نصفها الشرقي ، حيث كانت المسيحية هي الأوفر حظاً لدى سكان هذا الجانب من الجزيرة ، وكانت في ذات الوقت هي الديانة الأقدم ، ولم يكن الإسلام وهذا معلوم يفرض عنوة ، فكان توزيع الديانتين علي الخريطة الديموجرافية للجزيرة يتم بشكل تلقائي كما ترسمه عوامل التاريخ والبيئة ومبدأ حرية الاختيار والمفاضلة الذي يعد أهم مبدأ سياسي واجتماعي يقره الإسلام !

رابعاً : الاتجاه نحو الجنوب :

الاتجاه نحو الجنوب بالنسبة إلي انتشار الإسلام كمقوم وكعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية عند نشأته منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، لا يعنى الاتجاه جنوباً في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى فقط ، ولكنه يعنى في ذات الوقت الاتجاه جنوباً في شبه الجزيرة العربية حتى سواحل البحر العربي والمحيط الهندي والمدخل الجنوبي الشرقي للخليج العربي .

ووفقاً للتحديد المتقدم وصل الإسلام مبكراً إلي اليمن ، ومنها وعبر طرق أخرى تمكن من تغطية الساحل المطل علي البحر العربي والمحيط الهندي وحتى الساحل الغربي للخليج العربي .

وفي مرحلة تالية انتقل الإسلام إلي أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى في المنطقة الممتدة من السنغال في الغرب إلي الصومال في الشرق ، وقد دخل الإسلام إلي هذه المناطق عبر حركات الدعوة النشطة في عهد الأمويين ، ثم مع حركة التبادل التجاري والاجتماعي التي تمت بين مسلمي شمال أفريقيا وهذه المناطق .

وعندما دخل الإسلام إلي هذه المناطق وجد المسيحية ووجد ديانات أخرى محلية ، ولكنه احتل مكانته الخاصة وموقعة المميز من خلال ما اتسم به من قدرة فائقة علي التكيف مع الواقع في تلك المناطق عبر آلياته وأدواته المتنوعة والمتعددة .

ولقد ظل الإسلام منذ أن ولج إلي هذه المناطق وهو في حركة دائمة ودائبة ، لا يكف عن الانتشار والانتقال من بلد إلي بلد ومكان إلي مكان ، متجاوزاً الأجناس والأعراق وحتى اللغات واللهجات .

تركز الإسلام في منطقة أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى في نيجيريا والسنغال وغينيا ومالي والنيجر والسودان وزنجبار والصومال وإريتريا وتنزانيا وموريتانيا ، وهناك تركيزات أقل في ليبيريا وغانا وتوجو ، وتوجد تركيزات إسلامية أقل واحدث في تشكليها في كينيا وأوغندا وملاوي وزامبيا والكنغو .

المبحث الثالث

دخول أجناس مختلفة إلي الإسلام

أدى التطوران السابقان المتعلقان بسرعة الانتشار ، والانتشار في كافة الاتجاهات إلي أن دخل في الإسلام أجناس مختلفة بما تملكه تلك الأجناس من حضارات وثقافات ، وهنا تجلت عظمة الإسلام وقدرته الفريدة ، فلم يحدث أن تنافرت أو تصارعت تلك الأجناس بأرصدتها وتراكماتها الحضارية والثقافية ، ولكنها تألفت في بوتقة الإسلام وتحت رايته ، ويمكن إيضاح ذلك في الآتي :

أولاً : عالمية الإسلام :

لقد جاء الإسلام إلي جميع الناس ، فلم يخص قوماً دون آخرين ، فهو الدين الذي فُطر عليه كافة الخلائق ، ومن ثم فلم يكن مستغرباً دخول أجناس شتى إلي الإسلام ، فكلهم معنى به ومخاطب بأحكامه وتعاليمه .

وعمومية الخطاب في الإسلام تعنى أن الإسلام يتجاوز الحدود ، حدود الجنس وحدود اللغة ، وحدود الحضارات والثقافات ، حيث أنه في النهاية يجمع الجميع في بوتقة واحدة هي الحضارة والثقافة الإسلامية .

ومنذ ظهوره - وكما سبق وأوضحنا - أنتشر الإسلام في كافة الاتجاهات وضم في حظيرته جميع الأجناس ، وبالرغم من التباينات التي برزت بين تلك الأجناس ، إلا أنها اختلفت جميعها في كنف ذلك الدين الذي هذب طموحاتها وشذب خصوصياتها وكسر حدة ذاتيتها ، ليصبح للمجموع طموح واحد وخصوصية مشتركة وذاتية عامة هي الذات الحضارية للإسلام ومنطقه الثقافي الخاص .

ثانياً : الإبداع للجميع :

إذا كان الإسلام هو دين جميع الناس ، ومن حق كل إنسان أن يعتنقه ، وهذا ما حدث في بداية الدعوة ولا يزال يحدث في كل مكان من العالم ، فإن من حق كل مسلم بغض الطرف عن جنسه وموطنه أن يعطي للإسلام وأن يبدع باسم الإسلام .

وقد وضح ذلك خلال القرون الأربعة عشرة الماضية من عمر هذه الدعوة ، فقد حقق المسلمون جميعاً دون نظر إلي جنس أو موطن ، حققوا النصر لذلك الدين ونشروه في كل ربوع الأرض ، وأقاموا حضارته وعمقوا وأصلوا ثقافته ، وكان كل ذلك في النهاية هو تراث الإسلام وإسهام الإسلام وسيظل كذلك ، فالجميع شريك في هذه الحضارة والكل مساهم في هذه الثقافة .

ثالثاً : دوام العطاء والإسهام :

إن مقدرة الإسلام علي الديناميكية أو الحركية والانتقال الدائم من جنس إلي آخر من خلال الدعوة يجدد دماء ذلك الدين ، ويحفز الأقوام التي تدخل في رحابه علي العطاء والإسهام ، ومن ثم يصبح الإسلام دائماً مصدر وحي وإلهام لجميع الوافدين عليه والمعتنقين له .

رابعاً : ثراء الحضارة الإسلامية :

بالرغم من أن للحضارة الإسلامية ذاتيتها وخصوصيتها وتميزها ، إلا أنها في ذات الوقت قد ازدادت ثراءً من خلال الحضارات التي اجتمعت في كنفها وانصهرت في بوتقتها وازدادت كذلك تنوعاً .

المبحث الرابع

الإسلام ينتشر بحضارته وثقافته

لقد دخل الإسلام علي الأجناس والمناطق - التي سبق تفصيلها - مصطحباً معه حضارته وثقافته ، فلم يكن الإسلام في يوم ما صدق لأفعال وأقوال الآخرين ، ولكنه كان دائماً يملك ما يقول ولديه ما يفعل ، والتفصيل فيما يلي :

أولاً : الإسلام انتشر بحضارته :

لم ينتشر الإسلام كدين فقط وعبادات ونسك فحسب ، ولكنه انتشر كحضارة ونسق حياة لديه مفهومه الخاص للحضارة ، ويملك مقومات وعناصر حضارة ذات شخصية مستقلة ومتفردة ، أهتم بإعمار الأرض وأعتبر ذلك في عداد العبادة ، هكذا كانت حضارة الإسلام .

ثانياً : الإسلام انتشر بثقافته :

وكما انتشر الإسلام بحضارته انتشر كذلك بثقافته ، فالإسلام يملك منطلقاً ثقافياً خاصاً به يضمنه أحكامه وطروحاته تجاه كافة أشكال النشاط الإنساني من سياسة واقتصاد وإدارة .. الخ ، لم يدع أمراً من الأمور في حياة الإنسان إلا وتناولها بالترتيب والتأصيل في منطلق ثقافي خاص مستمد من الشريعة ، وهكذا كانت ثقافة الإسلام .

الفصل الرابع

الدعوة إلى الإسلام وأهمية ذلك

للحضارة الإسلامي في الوقت الراهن

نبتدر هذا الفصل بالتساؤل التالي : هل لا تزال الدعوة إلي الإسلام ونشره تمثل أهمية للحضارة الإسلامية في وقتنا الراهن ؟ وهذا السؤال بدوره يسلم إلي سؤال آخر مؤداه : هل هناك حضارة إسلامية راهنة ! أو بعبارة أكثر دقة هل الحضارة الإسلامية مجرد ماضي أو تراث ، أم أنها يمكن أن تمثل واقعاً ملموساً معاشاً ! ويمكن أن تمثل كذلك مستقبلاً نأمل أن تعيشه أجيالنا القادمة !! .

للأسف إن كثيرين يتعاملون مع الحضارة الإسلامية كتراث فحسب وكماضي فقط ، ومعنى ذلك أننا لا نملك إلا ماضياً ولا نعيش إلا علي اجترار ذكرياته ، ولا نملك أكثر من ذلك ، فنحن إذن لا نملك هوية قائمة حاضرة ومائلة ، بل نستمد هويتنا مما فات وكان ، إذن فمن نحن الآن !! نحن مسلمون ، كان لنا حضارة ، أما الآن ، فهل لا تزال تلك الحضارة تعيش معنا وتمثل هويتنا ، أم انقطعت صلتها بنا ومضت مع صانعيها وروادها ولم يبق منها إلا ذكراها كتراث !! .

في هذا الفصل نحاول أن نناقش جملة من الأفكار والتساؤلات الشائكة ذات الشجون ، والتي تنصب في جلها علي واقعنا الحضاري كمسلمين ، ثم كيف يمكن للدعوة إلي الإسلام ونشره أن يظل كما كان علي أهميته وحيويته كمقوم وعنصر حاسم في الحضارة الإسلامية في الوقت الراهن !! ، ويتضح ذلك من خلال المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : الدعوة بين الأمس واليوم .

المبحث الثاني : الدعوة كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية بين الأمس واليوم .

المبحث الثالث : هل هناك حضارة إسلامية قائمة وفعالة .

المبحث الرابع : ضرورة التحرك الإسلامي لتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري .

المبحث الأول

الدعوة بين الأمس واليوم

نقصد بالدعوة في هذا الموضع الدعوة إلي الإسلام ونشره في ربوع الأرض ، ونقصد بالأمس ، حال بزوغ الإسلام وانبعثت الرسالة ، ونقصد باليوم ، ما نعايشه من واقع معاصر ، وهناك بالفعل اختلاف وتباين شاسع بين واقع الدعوة إلي الإسلام عند بزوغ الإسلام وواقع الدعوة في عالم اليوم ، وأسباب ذلك عديدة وكلها في حاجة إلي إيضاح وتبيان ، حتى يمكن لنا تلمس المخرج من المأزق الذي وضع فيه المسلمون أنفسهم بنكوصهم وتقاعسهم ، ولنحاول مناقشة تلك الأسباب في الآتي :

أولاً : طبيعة الدعوة :

عندما بزغ الإسلام وبدأ يشق طريقه نحو الانتشار والذيع كان يملك زخماً وقوة لا تقارن ، فهو دين جديد والجميع يبتغي من ورائه الحول والقوة ، ويبتغي له في ذات الوقت التمكين والسيطرة ، ولم يكن أحد يعرف عن ذلك الدين شيئاً يذكر إلا أهله والمبشرين به ، ولم تكن له سوابق خيرة يمكن أن يعتد بها أو يقاس عليها .

وكانت وسائل وآليات الدعوة عند ظهور الإسلام تجمع بين التبشير والانتشار السلمي وبين الفتح ، وكان الأسلوبان يعملان معاً جنباً إلي جنب ، وأحياناً يتبادلان المواقع وفق الظروف والتطورات .

وكان الدين يحمل من التعاليم والأحكام والقيم والطروحات ما يكفل تنظيم كافة أمور الحياة ، وكانت جميع المجتمعات التي دخلها الإسلام تفتقد هذه المنظومة التي كانت في زمانها الأكثر تقدماً ورقياً علي الإطلاق ، وتتوق إلي اعتناقها ووضعها موضع التطبيق .

كذلك كان الدين الجديد هو المتنفس الأخير والملذذ النهائي لقطاع عريض من أبناء المجتمعات التي كانت في ذلك الزمان ، عبر ما جاء به من قيم وآفاق أرحب لحياة الإنسان الروحية والمادية .

أما في وقتنا الراهن فقد اختلف الحال ، فالدين الإسلامي الآن عمره يتجاوز الأربعة عشر قرناً ، وقد ساد مجتمعات عديدة ، ولم يحتفظ بزخمه الأول وقوة دفعه التي بدأ بها ، وفي الوقت الراهن لا يمثل المسلم النموذج الأمثل الذي ينشده غير المسلم .

أما عن وسائل وآليات الدعوة فهي لم تعد مثلما كانت ، فهي الآن قاصرة علي الاجتهادات الفردية ، وحتى لو كان وراءها دول إسلامية فهي تتم علي استحياء مراعاة لاعتبارات ومواءمات دولية صارمة .

كذلك فقد باتت الطروحات والقيم والمبادئ الإسلامية عرضة لأن تقارن وتضاهى بأفكار إنسانية موضوعة ، وربما فضلت الأخيرة في بعض الأحيان ، وذلك في مجتمعات إسلامية تتخذ من الإسلام ديناً .

وهكذا كان اختلاف النظرة إلي الإسلام بمثابة العامل الحاسم في تغيير مسار الدعوة إليه والعمل علي نشره ، ولا شك في أن أبناء الإسلام أنفسهم هم المسئولون أولاً وأخيراً عن ذلك الاختلاف والتباين ، وسوف يتضح ذلك مما هو تالي .

ثانياً : طبيعة الدعاة :

الدعاة في فجر الإسلام ليسوا هم الوعاظ والخطباء ، ولكن الدعاة كانوا هم قواد الجيش وأمرائه والمقاتلين والقاتحين ، وكانوا هم التجار والعلماء ، فكلُّ كان يدعو للإسلام من موقعه ، وعندما يؤدي هذه المهمة الجليلة يخيل للرائي أن هذا هو عمله الأوحد ومهمته التي لا يؤدي سواها .

لقد كان المسلم يهب عمره وحياته للإسلام ، يقاتل وينشر الدعوة ويعمل ، فقدم النموذج الذي جعل المخاطب بالدعوة يتوق إلي دخول الإسلام ، ولم يكن للمسلم هدف آخر ، ولم تتشبهت نفسه بعرض زائل من هذه الحياة ، وكان يؤدي كل أعماله بصدق وإخلاص وتفان.

لقد كان المسلم في فجر الإسلام علي يقين من أنه محمّل بأمانة ، وأداء هذه الأمانة لا يتم إلا بإبلاغ الدعوة ، وأنه مخول من الرسول العظيم لأداء هذه المهمة ، ومن ثم فهو يبلغ وينشر الإسلام في كل عمل يؤديه ، يبلغ بالقول الحكيم الحصيف الواعي الذي يبشر بالإسلام وسماحته ورحابته ، ولا ينفر بالتزمت والجمود ، وكذا بالفعل والسلوك القويم .
أما في وقتنا الراهن فقد أصبحت الدعوة للإسلام عملاً ووظيفة ، والداعية عامل وموظف ، يدعو إلي الإسلام وربما يناقض بأفعاله ما يأتيه بأقواله .

لقد أصبح الداعية في شغل بعرض الحياة ، وتزاحمت علي كاهله المطالبات والمتطلبات ، وتكالبت علي عقله وفكره الأهواء والتوجهات ، وبات ممزقاً بين مآرب الدنيا وواجبات الآخرة لا يدري إلي أيها يتوجه .

ثالثاً : طبيعة المجتمعات المتلقية :

وعند التحول إلي دراسة المجتمعات المتلقية للدعوة في فجر الإسلام ومقارنتها بالمجتمعات القائمة في عالم اليوم ، لوجدنا أننا أمام تحول كامل ومطلق ، فالمجتمع بالنسبة للدعوة هو مجالها الحيوي ، ومن ثم فهو يمثل عنصراً مهماً من عناصر نجاحها أو العكس .

وبالنسبة إلي المجتمعات التي كانت حال ظهور الإسلام ، فقد أتسمت بسمات عديدة لعل أهمها بساطة الأفكار المتعددية وإمكانية التحول البسيط والسريع والمباشر من معتقد إلي آخر ، هذا فيما يخص القطاع الأكبر من المجتمع وهم العموم ، ومن ثم فقد كان

التأثير في معتقدات أفراد المجتمع أمراً ممكناً بل بسيطاً وبلغياً ، حتى فئة المعاندين والمكابرين من كبار القوم فقد كان الوصول إليهم ممكناً وتبليغهم الإسلام ومحاجتهم في قضايا وأفكاره يحدث دائماً .

أما في عصرنا الراهن حيث وصل المجتمع البشري إلي ذروة التعقيد وقمة التشابك والتداخل في كافة القضايا المتعدية والفكرية والحياتية ، فلم تعد الفرصة مهيأة بسهولة للدعوة والتبليغ بالأساليب والآليات التي كانت في أيام الإسلام الأولى .

لقد تزاومت الأفكار البشرية الموضوعية بعثها وسمينها وصالحها وطالحها علي عقول الناس ، وقُدِّر لها أن تتحكم في تلك العقول وتسيطر عليها ، ولم تدع فرصة للدعوة الإسلامية لكي تنساب إلي تلك النهى فتخاطب فيها الفكر الرشيد والتدبر والتأمل .

كذلك حالت تشكيلات الحياة العصرية وترتيباتها وتنظيماتها دون الوصول إلي الناس علي كافة المستويات وتوجيه الخطاب إليهم فيما يتعلق بالإسلام والدعوة إليه ، ولم يعد في مقدور المرء أياً كان أن يتحدث في الدين إلا بشكل محدد ومن خلال قنوات معينة وتحت إشراف جهات معلومة .

فلا ينبغي أن نعتقد أن الأنظمة السياسية في الكثير من الدول وحتى في أمثلها أتباعاً لحرية الرأي والتعبير وأعرقها تطبيقاً لما يسمونه بالديمقراطية ، يمكن أن تسمح للدعوة الإسلامية أن تنتشر وللعقول أن تفكر بحرية وأن تعتقد ، فتلك مسألة تحسب وفق حسابات دقيقة وموازنات ومواءمات تقوم علي اعتبارات داخلية وإقليمية ودولية ، ومحاذير وضوابط ترتكن علي أسس وقواعد معتددة وفكرية ، أساسها الصراع والتنافس وهدفها السيادة والهيمنة وتغليب دين أو معتقد علي آخر .

المبحث الثاني

الدعوة كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية بين أمس واليوم

هدفنا المقصود من هذا العرض هو الدعوة بوصفها مقوماً من مقومات الحضارة الإسلامية ،
فالثابت مما قدمنا أن الدعوة كانت أحد المقومات المهمة من مقومات الحضارة الإسلامية
عند بزوغ فجر الإسلام ، ولكن ما هو الوضع اليوم ؟ هل لا تزال الدعوة تمثل مقوماً من
مقومات الحضارة الإسلامية ؟ نوضح ذلك من خلال الآتي :

أولاً : الدعوة كانت مقوماً وعنصراً من مقومات وعناصر الحضارة والآن هي دين فقط :

أوضحنا بشيء من التفصيل أن الدعوة إلي الإسلام كانت في عهده الأزل تمثل مقوماً
وعنصراً من مقومات وعناصر الحضارة الإسلامية ، وأوضحنا كذلك أن ذلك المقوم كان علي
درجة كبيرة من الأهمية ، ويحتل موقعاً متقدماً في سلم ترتيب مقومات تلك الحضارة ،
وقد احتلت الدعوة هذه المكانة انطلاقاً مما للإسلام من دور غير محدود وتأثير مطلق في
تشكيل الحضارة الإسلامية وتفعيلها .

فالإسلام يشكل في الحضارة الإسلامية الأساس والأصل الذي تشتق منه مقوماتها وعناصرها
، وكذلك يمثل الإسلام لتلك الحضارة المصدر والمنبع الذي تستمد منه منطلقات حركتها
وديناميات فعاليتها ، وتستلهم منه أخيراً غاياتها وأهدافها ، ومفاد ما تقدم أن الإسلام
بالنسبة للحضارة الإسلامية هو كل شيء ، يصنع أساس الصرح ويتوج قمته .

وفي الوقت الراهن تبدلت الظروف وتغيرت الأوضاع ، فلقد تم إفراغ الدعوة إلي الإسلام من
محتواها الحضاري ، وباتت الدعوة إلي الإسلام دعوة إليه كدين وليس كحضارة ، ولم
يعد الإسلام قوام الحضارة كما كان من قبل ، ولم يعد يتجاوز كونه ديناً ، والإيمان به أمر
واجب بل فريضة ، والدعوة إليه جائزة وبشروط وضوابط ، وسبب كل ذلك أنه لم يعد

هناك حضارة تمثل الإسلام ماثلة وقائمة ومُعاشه ، ولكن كانت هناك حضارة إسلامية ، ولم يصل إلينا منها إلا الآثار والحفائر ، ولم يتبق منها إلا التاريخ والتراث .

ثانياً : كان الإسلام حياة وعبادة ، أما الآن فهو عبادة فقط :

يتم ما تقدم أن الإسلام كان حياة كاملة للمسلم ، يتناول كل شئونه وأموره بالترتيب والتنظيم وفق طروحات ورؤى خاصة تنبع من شرع الله وتبغني رفعة دينه ، وكانت مهمة المسلم أن يعمل عقله في وضع تلك الطروحات والرؤى علي أرض الواقع ، ويجتهد من أجل الالتزام بالأساسيات والأصول ، ومن ثم فقيام المسلم بواجباته نحو إعمار الأرض وتفعيل الحياة وفق الطرح الإسلامي وعبر تنظيمات ذات صبغة إسلامية كل ذلك لا ينفصل بحال عن الإسلام كعبادة وكشعيرة ونسك ، فالمسجد كان في فجر الإسلام للعبادة وتدارس شئون الحياة وتدبير أمورها ، بل إن إعمار الحياة واستثمار الأرض كان عبادة في ذاته .

أما الآن فقد انفصل الإسلام الذي يحي به الناس ويدبرون معاشهم ويصرفون أمورهم عن الإسلام الذي يؤدون به شعائرهم ومناسكهم ، فالأول حل محله الفكر البشري الموضوع وطروحاته المعتمدة في تشكيلها وإفرازها علي العقل الإنساني دون مرشد أو كايح أو زاجر من قيم أو ضوابط أو وازعات ، أما الثاني فقد ضاق نطاقه وانحصر في العبادات والمناسك دون سواها وأصبح الإسلام هو العبادة .

لم يعد الإسلام حياة وعبادة ، والحياة جاء الإسلام لتنظيمها وترتيبها وضبط وقائعها وإيقاعاتها وتفاعلاتها بما يتضمنه من طروحات ورؤى ، وكذا بالشعائر ، وما الحضارة إلا زهرة الحياة ، والآن أبتعد الإسلام عن الحياة ، وهكذا أريد له ، ومن ثم لم يعد يفرز الحضارة وينتج المدنية ، بل تقوقع وتشرنق عن الحياة وانحصر في النسك والعبادة .

المبحث الثالث

هل هناك حضارة إسلامية قائمة وفعالة¹ ؟ [إحالة]

هذا السؤال لابد أن يفرض نفسه بعد ما قدمنا من حزمة التحولات التي تؤشر إلي مآل الدعوة الإسلامية بوصفها مقوماً وعنصراً من عناصر الحضارة ، فإذا كان حال الدعوة قد تغير وتبدل ، فإن الحضارة لابد أن تتبعها وجوداً وعدمياً ، فالدعوة ضاق نطاقها ، وحتى في هذا النطاق الضيق المحدود لم تعد تعنى إلا الدين في معناه الضيق والنسك في معناه المباشر ، ومن ثم فلم تعد تحمل في طياتها وثنائها الحضارة كما كانت ، فالحضارة الإسلامية لم تعد إلا تاريخاً وتراثاً ، والمسلمون يعيشون علي هذا الماضي يجتزون ذكرياته ويسترجعون أمجاده .

¹ . أرجع إلي الجزء السابع من هذا المجلد ، الحضارة الإسلامية في المعترك .

المبحث الرابع

ضرورة التحرك الإسلامي

لتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري

إذا كان الإسلام والمسلمون يعيشون علي ماضيهم الحضاري ، فهم الآن يملكون رصيماً يحتاج إلي التفعيل والتحرك ، ولا بد من التحرك في اتجاه تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري ، ويستلزم ذلك التحرك إلي الكثير من الحثيات والمسلمات والقناعات التي تمثل المنطلقات المؤدية إلي استثمار الحركة وتوظيف دينامياتها ، كما يتطلب أيضاً إلي آليات وأدوات خاصة لتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري ، ويكفي في الوقت الراهن التوصل إلي الحثيات والمسلمات والقناعات ، أما بالنسبة إلي آليات وأدوات الحركة فهي تنصرف إلي المستقبل أو الأجل الطويل ، ومن ثم فالمسلمات والقناعات تأتي عليها الآن ، في حين نرجئ تناول آليات وأدوات الحركة إلي الفصل التالي المبحث الثالث ، وذلك من خلال الآتي :

أولاً : الوقوف علي حقيقة الواقع الإسلامي الذي يفيد التخلي عن الذات الحضارية للإسلام والتبعية للآخرين :

أول القناعات التي ينبغي أن يدركها أبناء الإسلام أنهم قد تخلوا عن ذاتهم الحضارية ، وأصبحوا للآخرين تبعاً ، وهذه حقيقة لا مرأ فيها ، ولا ينبغي لأبناء الإسلام أن يطيلوا الجدول بخصوصها ، ويهدروا وقتهم وجهدهم في سبيل التثبيت والتيقن منها ، بل ينبغي أن ينصرفوا إلي ضرورة البحث عن المخرج من هذا الكهف المظلم .

ثانياً : التيقن من صعوبة الموقف :

القناعة الثانية التي ينبغي علي أبناء الإسلام إدراكها هي أن موقفهم غاية في الصعوبة ، وأن المخرج من هذا الموقف لن يكون أمراً سهلاً ، بل يتطلب المزيد من الجهد والوقت والتصميم والعزم ، وكل ذلك يعنى تضحيات جسام علي كافة المستويات وفي جميع الاتجاهات .

ثالثاً : التنبه إلي أهمية الدعوة الإسلامية لبعث وتأكيد الذات الحضارية للإسلام :

القناعة الثالثة التي ينبغي علي أبناء الإسلام إدراكها هي أن الدعوة الإسلامية تمثل حجر الزاوية في عملية بعث وتأكيد الذات الحضارية للإسلام ، وأن عملية البعث ينبغي أن تبدأ من الآن ، وأن آثارها ونتائجها لن يقدر لها الازدهار والإيناع إلا علي الأجل الطويل وفي المستقبل البعيد .

الفصل الخامس
الدعوة إلى الإسلام وأهميتها لمستقبل
الحضارة الإسلامية

القناعات الثلاثة التي ختمنا بها الفصل السابق تعد بمثابة المنطلقات التي تنطلق منها الدعوة الإسلامية من أجل رسم مستقبل الحضارة الإسلامية ، ويتبلور ذلك المستقبل في بعث وتأكيد الذات الحضارية للإسلام من خلال تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري ، ومن هنا تتضح العلاقة العضوية المباشرة بين الدعوة الإسلامية والحضارة .

وإذا كان تاريخ الحضارة الإسلامية يوضح كيف كانت الدعوة قوام الحضارة وصلبها ، فإن الواقع المعاصر يثبت من خلال مسلمات وقناعات راسخة أن الدعوة لها الأهمية المطلقة في قيام الحضارة ووجودها كواقع ، وأن ما أصاب الدعوة من تبدل وتحول أدى إلي اضمحلال الحضارة الإسلامية ، ثم إن مستقبل هذه الأخيرة يحتم العمل من الآن علي تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري .

والعمل من أجل مستقبل الحضارة الإسلامية ليس بالأمر البسيط الميسر ، ولكنه يحتاج إلي بذل جهود جبارة ، وإثارة قضايا غاية في الحساسية والأهمية ، وسوف نحاول في هذا الفصل الاقتراب من إشكالية مستقبل الحضارة الإسلامية ، ومس جملة القضايا التي تتضمنها تلك الإشكالية ، وذلك من خلال المباحث الثلاثة التالية :

المبحث الأول : صعوبة الحركة على مستوى العالم الإسلامي

[النموذج الكلي للممارسة] .

المبحث الثاني : ضرورة التحرك على مستوى الوحدة السياسية

[تفعيل النموذج الجزئي للممارسة] .

المبحث الثالث : وسائل وآليات تضمين الدعوة الإسلامية محتواها

الحضاري .

المبحث الأول

صعوبة الحركة علي مستوى العالم الإسلامي

[النموذج الكلي للممارسة]

الإدعاء بإمكانية تحويل العالم الإسلامي إلي كتلة واحدة وقوة موحدة تعيد للإسلام طابعه الأولي وسماته التي بدأ بها عبر مصادره الأصلية إدعاء من الصعب القول به ، ومن الأصعب وضعه علي محك التجربة ، ولعل أسباب ذلك معروفة للجميع ، ولكننا سنقوم بالتذكير بها مرة أخرى وليست أخيرة ، لأن الذكرى تنفع المؤمنين ، ويتم ذلك من خلال الآتي :

أولاً : ظهور النعرات القومية وتبلور ظاهرة " قومية الإسلام " :

قدمنا سلفاً وفي شبه إسهاب كيف بزغ الإسلام في منطقة شبه الجزيرة العربية ، وكيف انطلق منها في سرعة خاطفة ليعم أرجاء واسعة ويغطي مساحات شاسعة من الأرض ، ويقر في قلوب وعقول أجناس وأخلاق من البشر لم يرد في مخيلة أحد أن يجتمعوا جميعاً علي أتقي قلب رجل واحد ، وكان السبب وراء ذلك هو أن الإسلام قد دخل إلي قلوب وعقول هذا المزيج من البشر بفطرته وبساطته كما جاء من عند الحق تبارك وتعالى دون أن يعتره فكر بشري أو يلحقه طرح أنساني .

تمم ما تقدم ورافقه اتفاق وتوافق كافة الأجناس وجميع الأقوام التي عمها الإسلام علي العطاء والبذل من أجل رفعة ذلك الدين وإعلاء شأنه دون أي مأرب أو مطمح شخصي ، وساهمت كل الأمم بإيثار لا نظير له في بناء الحضارة الإسلامية ، وتشكيل المنطق الثقافي للإسلام ، متجاهلة تماماً مآثراتها وإرساباتها القومية ذات الخصوصية التي تركتها مع

ماضيها قبل مجيء الإسلام ، وأضحى الإسلام بوتقة أعادت صهر الخصائص الأثينية أو العرقية مع الذاتية الحضارية والثقافية الخاصة به ليخرج في النهاية ذاتاً حضارية إسلامية ومنطقاً ثقافياً إسلامياً يلغي ذاتية الشعوب ويتجاوزها ويفرض شخصية جديدة مستقلة .

إلا أن هذه المرحلة الذهبية الزاهرة من تاريخ الإسلام لم تستمر ، إذ سرعان ما بدأت قوة الدفع والحافزية الخاصة بالإسلام في الخفوت والوهن . وأدى ذلك إلي تآكل الرابطة التي كانت تربط العالم الإسلامي وتشده إلي بعضه ، وبدأت كل أمة تتحدث عما قدمت للإسلام من إسهام وإنجاز وعن دورها وأهميتها وجودها في كنف ذلك الدين ، واستيقظت ربما عن عمد أو غير عمد أمجاد وطموحات الماضي الغابر ، وطففت علي السطح إرسابات التميزات والفروق الأثينية والقومية ، وتباعدت الشقة بين أبناء الإسلام ، وباتت الفرصة مواتية بين الأخوة أبناء الإسلام لتدخل الغرياء والدخلاء وبلغ السيل الزبي ، وأخذ أبناء كل قومية يرفعون عقيرتهم مرددين أنه لولا وجودهم في كنف الإسلام لما قامت له قائمة ، وأنهم يمثلون بالنسبة إلي الإسلام إضافة عظيمة ، وتناثرت الكتابات والأدبيات السوداء التي بدت بوضوح نعراتها القومية ، فأنقسم الإسلام إلي فرق وشيع ذات طابع قومي أثيني أو عرقي .

ثانياً : بروز النعرات الطائفية وتبلور ظاهرة " طائفية أو مذهبية الإسلام " :

سبق تبلور النعرة القومية وربما صاحبها بروز ظاهرة المذهب أو الطائفة في الإسلام ، وقد ارتبطت هذه الظاهرة عضواً ببداية ظهور الطرح الإسلامي فيما يتعلق بأوجه النشاط البشري ، وإعمال العقل وتمكينه من استنباط الطروحات التي تنظم حياة الإنسان وتصرف شئونه من مصدري الشريعة الإسلامية القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ونماذج الممارسة العملية في دولة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين .

فالمذهبية في الإسلام إذن ارتبطت أساساً بالاجتهاد ، وتعدد الطروحات المقدمة من مجتهدي المسلمين ومفكريهم إزاء القضايا المستجدة والإشكاليات المتغيرة المرتبطة بتطور الحياة والمجتمع البشري ، وحوّل كل طرح أو اجتهاد تجمع المشايخ والمؤيدون والمستحسنون ، وفي مقابله تجمع كذلك المناوئون والمعارضون والمستهجنون ، وهكذا تعددت الفرق والمذاهب .

وتهيأت الفرصة مرة أخرى للمرجفين لكي يطلقوا افتراءاتهم على الإسلام وأهله ، مصورين إياه علي أنه قضايا متناثرة محل خلاف بين أبنائه ومعتنقيه ، وفت ذلك في عضد الرابطة التي تربط بين أبناء الإسلام ، وبالفعل اتسعت الشروخ بين المسلمين ، وتطورت بأساليب وأشكال غريبة ومقززة .

وكان أن التقت النعرات القومية العرقية مع النعرات الطائفية المذهبية ، فزاد الطين بلة ، وياتت قوميات وأعراق بذاتها تعتنق مذاهب بعينها ، وأصبح حال الأمة يرثى لها ، وتاهت الأكثرية عن جادة الصواب وسبيل الرشاد ، ولم تُجد المحاولات التي بذلت من أجل جمع الشمل ولم الشعث وصار كل حزب بما لديهم فرحون ، وركدت الدعوة الإسلامية ، واستحال الأمر من دعوة إلي الإسلام الحنيف وشرع الله العظيم إلي دعوة إلي المذهب والفكرة الطائفية ، وبارت حضارة الإسلام وأهدرت ثقافته ، وراجت أفكار المذاهب وغلا ثمنها ، وكانت النكبة علي الإسلام وأبنائه .

ثالثاً : ظهور النزعات السياسية وتبلور ظاهرة " الإقليمية " :

وعلي أثر النعرات القومية التي استشرت ، والصيحات الطائفية التي انتشرت ، وفي عهود متأخرة ، ضعفت السيطرة المركزية للدولة الإسلامية ، ظهرت النزعات السياسية وتبلورت بصحبتها ظاهرة " الإقليمية " وسعت كل قومية إلي الاستقلال بحيز جغرافي معين يضاها

حدود ما كان قائماً قبل مجيء الإسلام ، وظهرت النوايا ذات الطبيعة القومية واضحة جلية في الرغبة في الاستقلال السياسي عن جسد الدولة الإسلامية ، وتمزقت دولة الإسلام إلي وحدات سياسية تزامن مع ظهور الوحدة القومية أي الدولة في أوروبا ، وظهرت الدول الإسلامية بشكلها التي هي عليه الآن .

ورسّخ من هذا التفطيت وأرسى دعائمه القفزة التي قفزتها دول أوروبا الصاعدة في ذلك الوقت علي منطقة العالم الإسلامي ، فقدمت تلك الدول لهذه الهجمة بتوطئة فكرية تحت دعوى ما سمي " بالاستشراق " ، استهدفت من ورائها الوقوف علي حقيقة آخر التطورات والمتغيرات في منطقة العالم الإسلامي ، وتقويض ما يمكن من أسس ودعائم الحضارة والثقافة الإسلامية من خلال تغذية وتأجيج نيران النزعات القومية والطائفية ومن ثم النزعات السياسية ، وتركت المنطقة في حالة تمزق وتفتت وإنهاك لم تمكنها من التصدي للهجمة الأوروبية الشرسة .

وأنتهي الأمر بالدولة الإسلامية إلي مجموعة من الدويلات تقع معظمها تحت سيطرة الدول الأوروبية ، وعندئذ توقفت الحضارة الإسلامية عن العطاء والثقافة عن النتاج ، وهما لا تزالا في انتظار البعث والإحياء ، لتبدأ من جديد ويتواصل العطاء الحضاري والثقافي للإسلام .

رابعاً : بروز الاختلافات الفكرية والمنهجية :

في ثنايا ما تقدم من ظهور النزعات القومية والطائفية والنزعات السياسية الإقليمية وبصحبتهما وبتشجيع وتزكية من مصادر دخيلة وأخرى مريبة ، طفت علي سطح الحياة الفكرية والعقلية في العالم الإسلامي وفي هذه الرحلة الحرجة من تاريخه بالذات حزمة من

الاختلافات والخلافات الفكرية والمنهجية بين مفكره وعلمائه وصناع الرأي فيه ، ويمكن التطرُق إلى هذه الحزمة من الاختلافات والخلافات ذات الطبيعة المنهجية فيما يلي :

❖ الاختلاف حول مصادر الطرح الإسلامي :

يعلم الجميع أن الإسلام يقدم رؤية خاصة تعنى بتنظيم وترتيب جميع أوجه نشاط الإنسان وحركته في الكون ، وذلك من خلال طروحات يتولى الراسخون في العلم من مفكري الأمة وعلمائها استنباطها من مصادر معينة ومحددة بالذات والصفات وهي القرآن الكريم والسنة المطهرة ونماذج الممارسة العملية في دولة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين من بعده.

وكان أول الخلافات والاختلافات التي دبت بين أبناء العالم الإسلامي في فترة التفكك والانهيـار وتوقف العطاء الحضاري حول مصادر ذلك الطرح ، وإزاء ذلك برزت ثلاثة آراء :

– الرأي الأول : يرى في المصادر المذكورة أنها الأصل والأساس دون غيرها لاستنباط الطروحات الخاصة بتنظيم الحياة بكافة جوانبها ، وأن ذلك هو نهج الإسلام الأصيل ونبعه الصافي وطريق الله القويم ولا يمكن الحيد عن هذا السبيل .

– الرأي الثاني : وكان صريحاً ووقحاً ، ويرى أن هذه المصادر لم تعد تناسب تطورات الحياة ومستجدات المجتمع البشري ، واتجه إلى الاعتماد علي مصادر دخيلة روج لها الوجود الأوربي في العالم الإسلامي ! .

– الرأي الثالث : وكان خجولاً ومتردداً ، ويرى عدم التخلي عن المصادر الإسلامية المذكورة ، ونادى في ذات الوقت بضرورة تطويرها ومواكبتها لمتغيرات الأيام ومستجدات

العصر ، وأبتكر لفق طلاس هذه المعادلة تطعيمها بمصادر أخرى مساندة ومعارفة وأوربية بالطبع ! .

❖ تباين الطروحات :

أما عن الطروحات ذاتها فقد عايش العالم الإسلامي تبايناً واختلافاً شديداً ، حيث سادت الطروحات الواردة من الغرب المسيطر علي المنطقة في ذلك الوقت ، ومالت كافة الشعوب بمستوييها الشعبي والحكومي الرسمي إلي تلك الطروحات ، واعتبرت أن ذلك هو التقدم والرقي ، وأن غيره هو التخلف والتأخر ، وتعالنت الصيحات التي نادت بالاتجاه إلي أوروبا والطرح الغربي لتنظيم وترتيب أوجه الحياة في المجتمعات الإسلامية لإنقاذها من التخلف والجهل موعزة سبب ذلك إلي الطرح الإسلامي .

وعلي الجهة المقابلة صمدت فئة قليلة ظلت علي تمسكها بالطرح الإسلامي ، ولكنها لم تتمكن من مواصلة الصمود في وجه التيار العاتي لأصحاب ومروجي الطروحات الغربية ، بسبب الخطأ الجسيم التي وقعت فيه تلك الفئة المخلصة عن غير عمد ، حيث لم يجتهدوا من أجل تطوير وتطويع وتوفيق الأدوات والآليات التي يمكن للطرح الإسلامي أن يتعامل بها ومن خلالها مع تطورات العصر ومستجدات الزمن ، وهذا ما ينبغي أن يقوم به مفكرو الإسلام بشكل دائم ودائب وفي كل زمان ومكان ، حتى يأمنوا بوائق ما حدث للفئة المخلصة التي استمسكت بالطرح الإسلامي أساساً للحياة ومنهجاً .

❖ الاختلاف حول التنظيم :

نعني بالتنظيم في هذا السياق الشكل والآلية التي يتم عن طريقها نقل الطروحات من إطارها وطورها الفكري إلي الواقع العملي ، وهنا أيضاً حدث خلاف حاد يضاهي نظيره المتعلق بالطروحات ، حيث أنقسم مفكرو العالم الإسلامي إلي فريقين :

- الفريق الأول رأي ضرورة الاستعانة بالطرح الغربي ومعه أدواته وآلياته التنظيمية ، تحت دعوى التجانس بين الطرح وأدواته ، وكان في ذلك صريحاً وواضحاً ، وأنفذ غرضه وحقق ما نادى به ، حيث كان بجانبه الساسة وصناع القرار في المجتمعات الإسلامية ، الذين بهرهم وأخذ عقولهم ما قدمه أصحاب هذا الرأي من أدبيات حول نمط الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإدارية والفكرية في الغرب .

- الفريق الثاني رأي حتمية الاستعانة بالطرح الإسلامي ومعه أيضاً أدواته وآلياته ، ليس بدعوى التجانس بين الطرح وأدواته ، ولكن بدعوى الالتزام والتمسك بتلابيب الشرع الحنيف نصاً وفصلاً وشكلاً وموضوعاً ، ومرة أخرى بجانبه الصواب ، حيث يفشل بشكل ذريع في تطوير ومواءمة الأدوات والآليات التنظيمية التي تناسب العصر وتلائم الواقع .

❖ الاختلاف حول الغاية والهدف :

أخيراً كان هناك بين مفكري العالم الإسلامي الاختلاف حول الغاية والهدف من الطرح ومن أدواته وآلياته التنظيمية .

فكان الفريق الذي رأى في ضرورة الاستعانة بالطرح الغربي وأدواته التنظيمية يهدف إلي تحقيق التقدم والرقي والنهوض بالمجتمعات الإسلامية ، ولعل آخر ما يصبو إليه هو تحقيق ما أسموه " بمجتمع الرفاهة " .

أما الفريق الذي استمسك بالطرح الإسلامي وحاد في تلمس الأدوات والآليات المناسبة ، فقد أفلح في تحديد أهدافه وغاياته حيث جاءت متجانسة مع الطرح الإسلامي ومصادره ، فقد أوضح هذا الفريق أن هدفه وغاياته هو تحقيق الحياة الطيبة للمجتمع المسلم كغاية وسيطة ومرحلية إلي غاية أخرى نهائية هي عبادة الله والعمل بكتابه ، حيث أن هذه هي الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان وسخر له موجودات الكون وذلل له مخلوقاته .

خامساً : قوة عوامل الطرد والتفريق في مقابل ضعف عوامل الجذب والتوفيق :

كان من شأن ما سبق أن يقوى عوامل الطرد والتفريق بين أبناء العالم الإسلامي ، ويضعف من تأثير عوامل الجذب والتوفيق ، وبات العالم الإسلامي ماضٍ لا محالة إلي التفاتت والتمزق .

أن ما آل إليه حال العالم الإسلامي من تفاتت وتمزق وضعف الأواصر والروابط بين دوله وشعوبه ، يجعل من الصعوبة بمكان التحرك علي مستوى العالم الإسلامي ، من أجل العمل علي تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري اللازم لمستقبل الحضارة الإسلامية ، ويفرض في ذات الوقت علي المهتمين ضرورة تلمس الحركة علي مستوى آخر ، وذلك ما سوف نتناوله في الجزئية التالية .

المبحث الثاني

ضرورة التحرك علي مستوى الوحدة السياسية

[تفعيل النموذج الجزئي للممارسة]

إذا كان التحرك علي المستوى الكلي - وكما سبق الإيضاح - قد اعتراه العديد من المعوقات والمصاعب ، مما جعله في عداد المستحيل ، علي الأقل في الوقت الراهن ، فقد بات من الضروري بل والمحتم علي أبناء العالم الإسلامي الاتجاه إلي التحرك علي مستوى الوحدة السياسية وتفعيل النموذج الجزئي للممارسة ، وقد يبدو ، هذا هو الواقع أن الاتجاه نحو التحرك علي مستوى الوحدة السياسية هو اتجاه جبري تفرضه الظروف والأوضاع التي ألمت بالعالم الإسلامي ، وتزكيه الرغبة الملحة في إنقاذ الدعوة الإسلامية كمقوم للحضارة الإسلامية مما حاق بها من ركود ونكوص .

والتحرك علي مستوى الوحدة السياسية فيما يتعلق بتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري ، يعني توجيه الاهتمام للدولة الإسلامية بوصفها الوحدة الأساسية في كيان العالم الإسلامي ، وبدء العمل من هذه الوحدة ، ثم نقل التفعيل عبر أسلوب المحاكاة إلي الوحدات الأخرى ، حتى يعم التفعيل كافة كيان العالم الإسلامي ، وإذا كان العمل يبدأ من الوحدة الأساسية وهي الدولة ، فإن لذلك منهجه ونظامه وأسسها التي يستند إليها ، وله كذلك آلياته ووسائل نقله ، ويمكن متابعة ذلك من خلال التفصيل التالي :

أولاً : كيف يتم اختيار الوحدة الأساسية [النموذج] :

اختيار الوحدة الأساسية التي تمثل النموذج ليس أمراً يسيراً أو عشوائياً ، ولكنه ينبغي أن يتم بناءً علي معايير ومقاييس محددة ، وتتجسد أهم تلك المعايير والمقاييس في الآتي :

❖ أن تكون الشريعة هي مصدر التشريع الرسمي المعلن والفعلية المعمول به داخل المجتمع .

❖ أن تكون الثقافة الإسلامية هي السائدة داخل المجتمع ولا تنازعها ثقافة أخرى ، وأن يكون أفراد المجتمع علي قناعة بتلك الثقافة وإجماع عليها .

❖ أن يكون النظام السياسي في الوحدة الأساسية النموذج نظاماً إسلامياً شكلاً ومسلماً وكذا كافة الأنظمة الأخرى الاقتصادية والإدارية .. الخ .

❖ أن يكون النظام السياسي علي وعي وإدراك كاملين بمهمة الوحدة السياسية النموذج الخاصة بعملية تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري .

❖ أن تملك الوحدة الأساسية صفوة أو نخبة من المفكرين الذين يمكنهم قيادة عملية التضمين من خلال طرح إسلامي أصيل وصافٍ ويعتمد أساساً علي القرآن والسنة .

❖ أن تعتمد الوحدة الأساسية علي استقطاب العقول والأدمغة الفكرية من شتى بقاع العالم الإسلامي للمساهمة في عملية التضمين دون النظر إلي عرق أو جنسية .

ثانياً : مزايا التحرك علي مستوى الوحدة الأساسية في الوقت الراهن :

تتمثل مزايا التحرك علي مستوى الوحدة السياسية [تفعيل النموذج الجزئي للممارسة] في الوقت الراهن فيما يتعلق بتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري في المزايا التالية :

❖ في ظل التحرك علي مستوى الوحدة السياسية تسهل إمكانية السيطرة علي سلوك تلك الوحدة وترتيب حركتها فيما يتعلق بعملية الدعوة ، وسائلها وآلياتها في المعترك الدولي بخصائصه وتفاعلاته .

❖ كذلك في ظل التحرك علي مستوى الوحدة السياسية تسهل إمكانية تطبيق التجربة وإخراج النموذج .

ثالثاً : الدعوة إلي المحاكاة :

بعد أن يتم تطبيق تجربة التحرك من خلال الوحدة السياسية ، وتفعيل النموذج الجزئي للممارسة ، تقوم الوحدة النموذج بالدعوة إلي محاكاة تجربتها في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، إما بالاكتفاء بتقديم النموذج القدوة أو بالدعوة الصريحة إلي المحاكاة ، وقد يكون المسلك الأول أكثر تأثيراً .

المبحث الثالث

وسائل وآليات تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري

تتم عملية تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري من خلال الوحدة السياسية النموذج عبر مجموعة من الوسائل والآليات تتمثل في الآتي :

أولاً : التذكير بالمفهوم الإسلامي للحضارة :

أول آليات تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري تتمثل في إصدار الأدبيات والطروحات التي تهدف إلي التذكير بالمفهوم الإسلامي للحضارة ذلك المفهوم ذي الخصوصية والتميز ، وهنا تقترن الدعوة إلي الإسلام في شموله وعموميته بطرح منهج الإسلام في تعريف الحضارة ومصادر ذلك التعريف وأصوله وتطور ذلك المفهوم عبر التاريخ الإسلامي .

ثانياً : العودة إلي المصادر والأسس الإسلامية :

الآلية الثانية الخاصة بتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري تتمثل في العودة إلي المصادر والأسس التي تُستنبط وتُشتق منها الطروحات الخاصة بالحضارة والثقافة الإسلامية ، وهي المتمثلة في عقيدة التوحيد والقرآن والسنة ونماذج الممارسة العملية في دولة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين .

ثالثاً : الرجوع إلي عناصر ومقومات الحضارة الإسلامية :

أما الآلية الثالثة الخاصة بتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري فتتمثل في الرجوع إلي عناصر ومقومات الحضارة الإسلامية ، التي نستخلصها من التاريخ الإسلامي ، ولا تزال تملك المقدرة علي العطاء والإسهام في الحاضر والمستقبل ، ويتعين أولها في الدعوة

إلى الإسلام ونشره ، ثم في صياغة التنظيم ، ثم في تشكيل النظام الاجتماعي ، ثم في تأسيس الجيش ، ثم في التخطيط العمراني والعمارة والتشكيل ، وأخيراً في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها .

رابعاً : الدعوة إلى الأهداف والغايات :

وتتجسد الآلية الأخيرة المتعلقة بتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري في الدعوة إلى أهداف وغايات الحضارة الإسلامية ، وهي المتمثلة في الغايات الأبدية الخالدة التي ترى في الحضارة وسيلة وسيطة ومرحلية ، تستهدف إقامة الحياة الطيبة وإعمار الكون ، تمهيداً للغاية النهائية التي هي عبادة الله ، تلك الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان وسخر له الكون بموجوداته ومخلوقاته .